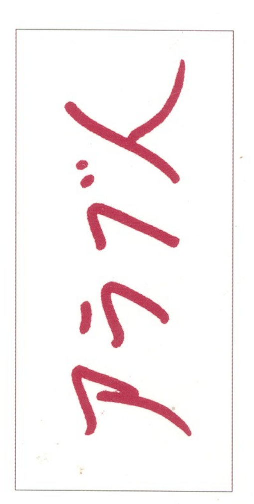
نوبوأكي نوتوهارا

العرب

وجهة نظر يابانية



منشورات الجمل

نوبوأكي نوتوهارا: العرب، وجهة نظر يابانية

نوبوأكي نوتوهارا

العرب

وجهة نظر يابانية

منشورات الجمل

ولد نوبوأكي نوتوهارا عام ١٩٤٠ في اليابان، درس اللغة العربية وعلومها في الجامعات اليابانية والعربية. ترجم العديد من الروايات والقصص العربية الى اليابانية. للمزيد من التفصيل أنظر: خاتمة.

نوبوأكي نوتوهارا: العرب، وجهة نظر يابانية، الطبعة الأولى

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

مقدمة

أربعون عاما من عمري هي مدخلي الى هذا الكتاب.

بدأتها طالبا في قسم الدراسات العربية بجامعة طوكيو للدراسات الاجنبية ثم مدرسا للادب العربي المعاصر في الجامعة نفسها. أربعون عاما وأنا أسافر الى العواصم العربية والارياف والبوادي. أرى وأتأمل واكتب انطباعاتي للقارىء الياباني. أربعون عاما وانا أتابع الرواية العربية فاتعلم وأترجم وأتحدث للناس هنا في اليابان. قابلت كتابا عربا في البلدان العربية كلها: ولي أصدقاء كثيرون أحبهم وأحترمهم واعتز بصداقتهم وأقمت مع الفلاحين في ريف مصر، ومع البدو في بادية الشام، وهناك تعلمت عميقا دروسا في الحياة والثقافة وحوار الشعوب. أربعون عاما تدفعني دفعا لاقول بعض الافكار والانطباعات عن الشخصية العربية المعاصرة. تجربتي تقودني الى هذا الكتاب وعلاقتي الحميمة مع الشخصية العربية تشجعني، وأعترف ايضا ان بعض اصدقائي العرب ألحوا علي ان أكتب بالعربية شيئا مما أعرفه – على تواضعه – وها أنذا أ فتح عيني علي مداهما لأرى بعين المراقب المقارن، ولكن المراقب المحب الحريص، المراقب الذي أعطى الشخصية العربية حتى الان أربعين عاما من عمره.

في اول مرة عام ١٩٧٤ خرجت فيها من الفندق: انها القاهرة! أنا لا أستطيع ان أنسى ذلك الانفعال الذي كان يفور من داخلي، انفعال رائع ما زال طعمه حيا حتى الان. شعورمركب من المفاجاة والدهشة والاكتشاف والفرح.

بعد عشر سنوات من الزيارة الاولى كنت في القاهرة نفسها، ولكن كانت رغبتي في الخروج الي الشارع قد ذبلت، كنت أريد ان أقلل عدد مرات خروجي قدر الامكان، لم يكن السبب انني أكره الغبار والضجة وحرارة الشمس القوية بل كان السبب هو انني كنت أرى توترا شديدا يغطي المدينة كلها. ولكنني لا أستطيع ان أتجاهل حياة الناس في هذه المدينة. كانت وجوههم تدخل الى عيني

وهم يمشون وكأن شيئا ما يطاردهم. وجوه جامدة صامتة وطوابير طويلة من الواقفين امام "الجمعية" ومواقف الباص وغيرها، لقد رأيت الباصات المكتظة تجري بينما يتعلق ركاب بالشبابيك والابواب! يريد الناس ان يركبوا بأي ثمن وفي هذا الازدحام المحموم ينسى الكثير من الرجال والنساء السلوك المحتشم الذي يوجبه عليهم الاسلام كمسلمين. حتى في التاكسي يواجه الراكب اضطهادا فالسائق يختار الراكب حسب المكان الذي يريد الذهاب اليه، ويرفض ان يقل الشخص الذي لا يعجبه شكله او المسافة التي سيقطعها، شيء لا يصدق عندنا في اليابان. باختصار التوتر يغطي الشارع، توتر شديد تتوقع ان ينقطع في اي لحظة. هذا التوتر يجعل الناس يتبادلون نظرات عدوانية ويزيد توتر المدينة نفسها اكثر فاكثر.

كنت اسكن في بانسيون «جاردن سيتي» وكان قسم الهجرة والجوازات يشغل قسما من العمارة نفسها. ومن الصباح الباكر كان الناس يقفون في طوابير طويلة تلف العمارة كلها، شباب وارباب أسر يريدون السفر الى الخارج طلبا للرزق. كان الجميع يقفون تحت حرارة الشمس الحارقة بصمت، ووجوه جامدة فارغة الا من التوتر والعجز. والموظفون الحكوميون لا يبالون بالناس. كنت كلما أردت الخروج او الدخول أشق ذلك الطابور وكلما تأملت في وجوه المنتظرين الواقفين رأيت معنى قلق رب الاسرة وهو لا يعرف فيما اذا كان سيتم معاملته. كان الموظف الحكومي ينهي الامر كله بكلمة واحدة في نهاية الدوام: بكرة. وهذا يعني ان على ما بقي من الطابور ان يستانف الوقوف نفسه في صباح اليوم التالي. هناك استثناء لمن يعرف احد الموظفين عندئذ يتم انجاز المعاملة بسرعة كبيرة. ذلك المنظر يتكرر بأشكال مختلفة في البنوك والمطار والبلدية وما شابهها. دائما كنت أسمع في التلفيزيون والراديو وأقرأ في الجرائد كلمات مثل: الديموقراطية، حقوق الانسان، حرية المواطن، سيادة الشعب وكنت أشعر وانا أتابع استعمال تلك العبارات ان الحكومة لا تعامل الناس بجدية بل تسخر منهم وتضحك عليهم، فهل يستطيع المرء ان يتجاهل الصلة القائمة بين هذا الاسلوب الذي يستغبي

الشعب والتوتر الذي يسيطر على جموع الناس العاديين؟

عندما يعامل الشعب على نحو سيىء فان الشعور بالاختناق والتوتر يصبحان سمة عامة للمجتمع بكامله.

بعد غروب الشمس يهب نسيم مريح يعبر مدينة القاهرة، ولكن رغم بركة الطبيعة وبركة نهر النيل الذي يرسل نسيما منعشا فان شعور الناس المكسر في النهار يستمر حتى النهار التالي!

في الآونة الاخيرة عندما أزور القاهرة، فانني أتجه من المطار مباشرة الى بيوت اصدقائي وأتجنب مدينة القاهرة وشوارعها. وهذا الواقع يشعرني بالكآبة: أنا اجنبي أكره الشوارع وأكره الاسباب التي أدت الى هذه الكآبة ومشكلتي تنتهي بخروجي من القاهرة (هل تنتهي فعلا؟) بينما يشعر أصدقائي أضعاف ما أشعر به ولكنه وطنهم وعليهم ان يتابعوا الحياة بكل توترها واختناقها هناك!

هل تختلف العواصم العربية الاخرى التي زرتها واقمت فيها عن القاهرة؟ لا أريد ان أعقد مقارنة. هي ليست باستطاعتي ولكنني أقول انطباعي مباشرة واقل ما يمكن ان اقول: ان الناس في شوارع المدن العربية ليسوا سعداء وليسوا مرتاحين. سمعت صرخة في الجو الخانق الصامت وما زالت فى أذني.

الناس صامتون لا يتحدثون ولكننا نسمع صرخة من خلال ذلك الصمت الخانق، صرخة تخبر عن نفسها بوضوح وقوة. وها أنذا أتلمس جذور تلك الصرخة واسبابها وأقدم بعض النقاط التي تسم الشخصية العربية المعاصرة وهذه الملاحظات التي سأذكرها هي نتائج تجاربي في الاقامة في مصر خاصة والبلدان العربية الاخرى بصورة عامة. انني أؤكد باستمرار انني أعطيت القضية العربية عمري كله فمن حقي - ربما - ان أقول شيئا مباشرا أجمله في الافكار التالية!

غياب العدالة الاجتماعية!

أول ما اكتشفت من البداية في المجتمع العربي هو غياب العدالة الاجتماعية،

وهذا يعني غياب المبدأ الاساسي الذي يعتمد عليه الناس، مما يؤدي الى الفوضى. ففي غياب العدالة الاجتماعية وسيادة القوانين على الجميع بالتساوي يستطيع الناس ان يفعلوا كل شيء. ولذلك يكرر المواطنون دائما: كل شيء ممكن هنا. وأضيف كل شيء ممكن لان القانون لا يحمي الناس من الظلم.

تحت ظروف غياب العدالة الاجتماعية تتعرض حقوق الانسان للخطر. ولذلك يصبح الفرد هشا ومؤقتا وساكنا بلا فعالية لانه يعامل دائما بلا تقدير لقيمته كانسان. واستغرب باستمرارلماذا يستعملون كلمة الديموقراطية كثيرا في المجتمع العربي؟

ان ظروف الواقع العربي لا تسمح باستعمالها لان ما يجري فعلا هو عكسها تماما.

عندما تغيب الديموقراطية ينتشر القمع، والقمع واقع لا يحتاج الى برهان في البلدان العربية. فعلى سبيل المثال الحاكم العربي يحكم مدى الحياة في الدولة الدينية او الملكية او الجمهورية او الامارة او السلطنة. ولذلك لا ينتظر الناس اي شيء لصالحهم. وكمثال آخر فان معظم الصحف العربية تمنع من بلد الى بلد والرقابة على الكتب والمجلات ليست باقل من الرقابة على الصحافة. هنا مئات الكتب العربية، وغير عربية ممنوعة في معظم البلدان العربية وخاصة الكتب التي تعالج الحقائق اليومية الملموسة للناس، والكتب التي تتعرض للدين اوالجنس اوحياة الفئات الحاكمة، او تتكلم على واقع السجون والحريات العامة وما شابهها. ونحن نقرأ كل سنة في معارض الكتب العربية قوائم طويلة بالكتب الممنوعة دون ان يستثنى من ذلك بلد عربي واحد.

أذكر عندما كنت أعد كتابا باليابانية عن مصر انني لم اجد الكتاب الفريد «شخصية مصر» للدكتور جمال حمدان لانه كان ممنوعا! رغم ان الكاتب يعتز بعروبته اعتزازا لا يقل عن اعتزازه بمصريته، اضافة الى ان الكتاب نفسه لا مثيل له في ميدانه! ومن تجربتي الشخصية أستطيع ان أذكر عشرات الكتب الممنوعة في البلدان العربية: ادبية فكرية دينية. بدءا من رواية محمد شكري «الخبز

الحافي»·الى الثالوث المحرم لبو علي ياسين! وفي حدود تجاربي مع الكتاب العرب فان معظمهم تعرض لمنع الرقابة جزئيا في بلده، ولمنع بعض كتبه في بلده، او في بلدان عربية اخرى! انه امر لا يصدق ولكنه واقع ملموس في المجتمع العربي.

كل هذا يعني غياب حرية الرأي. وحرية الكلام. عندنا في اليابان نقول عندما لا نستطيع ان نتكلم بحرية: عندما أفتح فمي فان هواء الخريف ينقل البرد الى شفتي. والعربي عندما لا يستطيع ان يصرح بما في نفسه عليه ان يقول تحت لساني جمرة..

ذلك ان ظروف المجتمع العربي الشديدة تحتاج الى جمرة بدلا من تعبيرنا عن البرد.

أعتقد ان القمع هو داء عضال في المجتمع العربي ولذلك فان اي كاتب اوباحث يتحدث عن المجتمع العربي دون وعي هذه الحقيقة البسيطة الواضحة فانني لا اعتبر حديثه مفيدا وجديا. اذ لا بد من الانطلاق بداية من الاقرار بان القمع – بكافة اشكاله – مترسخ في المجتمعات العربية. هل هناك فرد مستقل بفردية في المجتمع العربي؟ المجتمع العربي مشغول بفكرة النمط الواحد على غرار الحاكم الواحد، والقيمة الواحدة والدين الواحد وهكذا.... ولذلك يحاول الناس ان يوحدوا اشكال ملابسهم وبيوتهم وأرائهم. وتحت هذه الظروف تذوب استقلالية الفرد، وخصوصيته واختلافه عن الاخرين. أعني يغيب مفهوم المواطن الفرد لتحل مكانه فكرة الجماعة المتشابهة المطيعة للنظام السائد. في هذه المجتمعات يحاول الفرد ان يميز نفسه بالنسب كالكنية او العشيرة او بالثروة او بالمنصب او بالشهادة العالية في مجتمع تغيب عنه العدالة ويسود القمع وتذوب استقلالية الفرد وقيمته كانسان يغيب ايضا الوعي بالمسؤولية. ولذلك لا يشعر المواطن العربي بمسؤوليته عن الممتلكات العامة مثل الحدائق العامة والشوارع ومناهل المياه ووسائل النقل الحكومية والغابات باختصار المرافق العامة كلها. ولذلك يدمرها الناس اعتقادا منهم انهم يدمرون ممتلكات

الحكومة لا ممتلكاتهم هم. وهكذا يغيب الشعور بالمسؤولية تجاه افراد المجتمع الاخرين. فعلى سبيل المثال، السجناء السياسيون في البلدان العربية ضحوا من اجل الشعب ولكن الشعب نفسه يضحي باولئك الافراد الشجعان، فلم نسمع عن مظاهرة او إضراب او احتجاج عام في اي بلد عربي من اجل قضية السجناء السياسيين. ان الناس في الوطن العربي يتصرفون مع قضية السجين السياسي على انها قضية فردية وعلى اسرة السجين وحدها ان تواجه أعباءها! ان ذلك من أخطر مظاهر عدم الشعور بالمسؤوليته.

انني افهم معنى ان تضحي السلطة بافراد متميزين ومفكرين وادباء وسياسيين وعلماء وفنانيين وسواهم، ولكن لماذا يضحي الشعب نفسه باولئك الافراد؟ بالطبع انا لا انكر ان هناك افرادا يلاقون تقديرا عاليا ولكن المبدأ نفسه ما زال ضعيفا ولا يشكل قوة اجتماعية فاعلة او مثمرة.

أخطر نتائج ذلك كله سيطرة الشعور باللا جدوى حتى لدى الطليعة المثقفة. اذكر اثناء حرب الخليج، انني قابلت العديد من المهاجرين العرب في باريس. بعضهم مهاجرهربا وبعضهم أقام بعد ان أنهى تحصيله العالي! وبعضهم يبحث عن شروط حياة افضل. ولقد قدرت ان العراقيين خاصة ينظمون عملا ما ولكن معظم الذين تحدثت اليهم قالوا انهم يعيشون فقط! والسبب كما قالوا – انهم قد خابت آمالهم الى درجة الشعور باللا جدوى واحيانا اليأس الكامل. انهم لا يومنون بفائدة اي عمل سياسي في البلدان العربية!

هناك حقائق في الدين وفي الكتب وفي اقوال القادة السياسيين ولكن الحقائق الموجودة في الوقائع لا بد ان نكتشفها بانفسنا. دراسة الوقائع مهمة دائما لانها تتضمن حقائق جديدة لا بد ان نواجهها. بالنسبة للرأى السائد لدى معظم المسلمين فان القرآن الكريم يحتوي على الحقائق كلها جاهزة كاملة! اذا كيف يواجه الناس الوقائع الجديدة؟ لذلك فالعربي يتناول افكاره من خارجه بينما عندنا في اليابان مثلا الناس يستنتجون افكارهم من الوقائع الملموسة التي نحياها كل يوم، وفي مجتمع كمجتمعنا نضيف حقائق جديدة. بينما يكتفي

العربي باستعادة الحقائق التي قد اكتشفها في الماضي البعيد. أستدرك فاقول هناك افراد عرب يتعاملون مع الواقع والحقائق الجديدة ولكنهم افراد فقطولا يشكلون تيارا اجتماعيا يؤثر في حياة الناس.

وفي سياق الكلام عن الحقيقة فانني أضيف ان الناس في الوطن العربي يخبئون الحقائق التي يعرفونها حق المعرفة، فعلى سبيل المثال زرت شخصيا منطقة تدمر خمس مرات وزرت متحفها ولكنني لم اعرف ان فيها سجنا مشهورا اسمه «سجن تدمر» بالطبع حتى الان لا أعرف موقع ذلك السجن! ان الخوف يمنع المواطن العادي من كشف حقائق حياته الملموسة. وهكذا تضيع الحقيقة وتذهب الي المقابر مع اصحابها.

واجه اليابانيون تجربة صعبة ومريرة. فلقد سيطر العسكريون على الامبراطور والسلطة والشعب. وقادوا البلاد الى حروب مجنونة ضد الدول المجاورة وانتهى الامر بتدمير اليابان من قبل الولايات المتحدة الامريكية في نهاية الحرب العالمية الثانية. هذا حدث في تاريخنا القريب ودفع الشعب الياباني ثمنا باهظا. ولكننا وعينا خطأنا وقررنا ان نصحح فابعدنا العسكريين عن السلطة وبدأنا نبني ما دمره القمع العسكري. لقد عانى اليابانيون كثيرا لكي يخرجوا من الخطأ واستغرق ذلك اكثر من عشرين سنة. ومن المعاناة نفسها تعلمنا دروسا اظن ان المواطن الياباني لن ينساها، تعلمنا ان القمع يؤدي الى تدمير الثروة الوطنية وقتل الابرياء ويؤدي الى انحراف السلطة عن الطريق الصحيح والدخول في الممارسات الخاطئة باستمرار. لقد ضحى اليابانيون جميعا باشياء كثيرة تحت سلطة القمع العسكرية، ولكن كان هناك فئة تربح دائما ولا تخسر شيئا هي فئة التابعين للسلطة العسكرية، اعني حاشية السلطة واعوانها ومخبريها.

المهم اننا وعينا خطأنا اولا، ثم عملنا على تصحيح الخطأ وهذا كله احتاج الى سنوات طويلة وتضحيات كبيرة. كان علينا ان نعي قيمة النقد الذاتي قبل كل شيء ودون انجاز النقد الذاتي بقوة لا نستطيع ان نجد الطريق لتصحيح الاخطاء.

وأضيف هنا ان الانسان بحاجة الى النقد من الخارج ومن الداخل ايضا مهما كان موقفه او وظيفته او صفته الاجتماعية وبرأيي ان الشخصية او الحزب السياسي او الهيئة الاجتماعية التي لاتقبل النقد تنحط وتتدنى يوما بعد يوم حتى تصل الى الحضيض.

كثيرا ما واجهت هذا السؤال في البلدان العربية: لقد ضربتكم الولايات المتحدة الامريكية بالقنابل الذرية فلماذا تتعاملون معها؟ العرب عموما ينتظرون من اليابانيين عداء عميقا للولايات المتحدة الامريكية لانها دمرت المدن اليابانية كافة. ولكن طرح المسألة على هذا النحو لا يؤدي الي شيء. علينا نحن اليابانيين ان نعي اخطاءنا في الحرب العالمية الثانية اولا ثم ان نصحح هذه الاخطاء لاننا استعمرنا شعوبا اسيوية كثيرة ثانيا. وأخيرا علينا ان نتخلص من الاسباب التي ادت الى القمع في اليابان وخارجها. اذن المشكلة ليست في ان نكره امريكا ام لا. المشكلة في ان نعرف دورنا بصورة صحيحة ثم ان نمارس نقدا ذاتيا بلا مجاملة لانفسنا بعدئذ نختار الطريق الذي يصحح الانحراف ويمنع تكراره في المستقبل. اما المشاعر وحدها فانها مسألة شخصية محدودة لا تصنع مستقبلا. من هذا الموقع نفهم مأساة هيروشيما وناغاساكي. ونفهم علاقتنا مع العالم. نحن اليابانيين نفهم القاء القنبلة الذرية على مدننا مقترنا باخطائنا التي ارتكبناها في الحرب العالمية الثانية وقبلها. رغم اننا نحمل في مشاعرنا وتفكيرنا الكراهية الاشد للقنابل النووية واليابانيون اكثر شعب في العالم ينتقد السلاح النووي ويكرهه ويدعو الى التخلص منه. لقد دفعنا الثمن وبقيت لنا مشاعر الحزن والمرارة ولكننا نجحنا الى حد مقبول في تصحيح اخطائنا في هذا المجال.

عندما انتهت الحرب العالمية الثانية، كنت في عامي الخامس. ولقد رأيت اليابان مهزومة وعشت مع أسرتي نواجه مصيرنا بلا اي عون. كنا لا نملك شيئا أمام الجوع والحرمان وظروف الطقس وغيرها. ولقد رافقت عملية اعادة البناء، كنت أعيش مع عائلتي في طوكيو وطوكيو هدمت بالكامل حيا حيا شارعا شارعا

في الايام الاخيرة من الحرب. عرفت هذا كله وعرفت ايضا نتائج مسيرة تصحيح الاخطاء وانا نفسي استمتعت بثمار النهوض الاقتصادي الياباني. بعدئذ سافرت الى البلدان العربية وكنت قد تجاوزت الثلاثين من عمري ورأيت وقرأت وتحدثت الى الناس في كل مكان نزلت فيه. لقد عاينت بنفسي غياب العدالة الاجتماعية وتهميش المواطن واذلاله وانتشار القمع بشكل لا يليق بالانسان. وغياب كل انواع الحرية كحرية الرأي والمعتقد والسلوك وغيرها. كما عرفت عن قرب كيف يضحي المجتمع بالافراد الموهوبين والافراد المخلصين، ورأيت كيف يغلب على سلوك الناس عدم الشعور بالمسؤولية تجاه المجتمع وتجاه الوطن ولذلك كانت ترافقني أسئلة بسيطة وصعبة: لماذا لا يستفيد العرب من تجاربهم؟ لماذا لا ينتقد العرب آخطاءهم؟ لماذا يكرر العرب الاخطاء نفسها؟ نحن نعرف ان تصحيح الاخطاء يحتاج الى وقت قصير او طويل. فلكل شيء وقت ولكن السؤال هو: كم يحتاج العرب من الوقت لكي يستفيدوا من تجاربهم ويصححوا اخطاءهم، ويضعوا أنفسهم على الطريق السليم؟!

مدخل

أربعون عاما مرت على علاقتي بالثقافة العربية، النثر العربي المعاصر بصورة عامة والرواية بشكل خاص.

لعل المصادفة قادتني الى الثقافة العربية، وربما لعبت ظروف اليابان دورا حاسما، ففي أول الستينيات عرف الاقتصاد الياباني نهوضه القوي ولذلك توسعت اليابان في علاقاتها مع العالم الخارجي. وأقدر أن البترول لعب دورا أساسيا في الاهتمام بالبلدان العربية. على اي حال، في تلك الفترة كنت طالبا في المرحلة الثانوية وكان عندي اهتمام كبير بالادب الياباني الحديث، ولقد قرأت كثيرا من الاعمال الادبية والاجنبية. لذلك فكرت أن أدرس الأدب الالماني.

وفي العام الذي حاولت فيه ان ادخل الى الجامعة، اعلنت جامعة طوكيو للدراسات الاجنبية عن افتتاح قسم للدراسات العربية العام ١٩٦١ م وفجأة تحرك صوت في داخلي يدعوني لدراسة اللغة العربية، وكما قلت لعلها المصادفة، او ربما اغواء المجهول، فانا لم أكن اعرف اي شيء عن الثقا فة العربية – مثل غالبية اليابانيين – وعلى الفور قررت المغامرة، وتقدمت لامتحانات القبول في جامعة طوكيو للدراسات الاجنبية. لقد قضيت أربع سنوات طالبا، ولا أريد هنا ان أتحدث عنها لاسباب ربما كانت اخلاقية.

أثناء دراستي فى الجامعة، بدأت اقرأ نجيب محفوظ: رواية بين القصرين. لقد أشا ع الباحثون اليابانيون وقتئذ ان الشعر الجاهلي وحده جدير بالاهتمام، وان ليس عند العرب المعاصرين من يستحق الاهتمام سوى نجيب محفوظ! وطبعا عرفت فيما بعد كم كانت تلك الآراء سطحية وخاطئة. قادني البحث والمصادفة الى غسان كنفاني واعترف ان هذا الكاتب أثر في وجداني تاثيرا عميقا وعلمني القضية الفلسطينية. ولقد كانت روايته «عائد الى حيفا»، اول عمل اترجمه الي اليابانية عام ١٩٦٩م وكانت خطوتي الاولى في تقديم النثر العربي المعاصر

للقارىء الياباني.

في تلك الفترة اشتغلت استاذا زائرا في جامعة طوكاي وبالطبع كنت ادرس اللغة العربية، بعد ذلك اصبحت معيدا في قسم الدراسات العربية في جامعة طوكيو للدراسات الاجنبية عام ١٩٦٩ م.

في عام ١٩٧٤، حصلت على منحة خاصة من الحكومة المصرية للدراسة كطالب مستمع في جامعة القاهرة، وسافرت في نهاية ١٩٧٤. كانت القاهرة تجربتي الاولى ورواية «الارض» لعبد الرحمن الشرقاوي فاتحة قراءتي هناك. انني اذكر هذه الرواية لانها دفعتني نحو الريف المصري وفعلا سافرت الى المحافظة الشرقية، واقمت في قرية «الصحافة» وهناك تعرفت على حياة الفلاحين وعاداتهم وتقاليدهم. عرفت كيف يأكلون ويتعاملون، لقد تعلمت كثيرا من فلاحي قرية «الصحافة» ولكن امورا كثيرة بقيت غامضة بالنسبة لي، واسئلة كثيرة كانت تدور في داخلي دون ان أجد تفسيرا مقنعا، د.جمال حمدان روى عطشي واعطاني أجوبة عميقة على تساؤلاتي كلها في كتابه الممتاز «شخصية مصر.» تابعت بحماس قراءة اعمال الروائيين والقاصين المصريين؛ يوسف ادريس، صنع الله ابراهيم، يحيى الطاهر عبد الله، حسين فوزي، يحيي حقي الذي لفت انتباهي بقوة نحو الصعيد. وبالطبع قابلت كتابا عديدين وفنانين وصحافيين وعشت معهم حياة مثمرة لا انساها مدى الحياة، انهم اصدقاء مرحلة هامة من حياتي. هل اذكر منهم محيي الدين لباد، رؤوف عباس، عدلي رزق الله، يوسف شريف، نبيل التاج، الرسام احمد حجازي، الفنانة شلبية ابراهيم، نذير نبعة من سورية وغيرهم الكثير؟

لقد ترجمت رواية الارض (صدرت باليابانية عام ١٩٧٩ م) وصدرت ايضا الحرام عام ١٩٨٤ م وأرخص ليالي عام١٩٨٠ م وتلك الرائحة عام١٩٩٣ م والعسكري الاسود عام ١٩٩٠ م.

بعد الرجوع الى اليابان، تابعت تدريس اللغة العربية في جامعتي ولكنني كنت ازور مصر مرة علي الاقل في كل سنة في الصيف. كنت التقى باصدقائي واجمع

الروايات الصادرة حديثا في كل زيارة. لقد مضى على علاقتي بمصر عشر سنوات وانا مستغرق في متابعة كتب كتابها واساليب الحياة اليومية فيها . فجأة حدث تغيير هائل في داخلي. كان تغييرا مفاجئا نهائيا . لقد فقدت اهتمامي بثقافة المدينة، اعني ثقافة المستقرين. بالطبع لم يهبط ذلك التغيير من الفرا غ، واقدر، شبه جازم، ان السبب العميق بالنسبة لي كان: مشكلة وجود الطاقة النووية. لقد فكرت على النحو التالي: لقد وثق المستقرون (المدينيون) بالتكنولوجيا ، وبذلوا كل جهودهم لرفع مستواها ، ولكن التكنولوجيا نفسها وصلت الى مستوى الطاقة النووية ونحن المستقرين لم نحل هذه المشكلة بصورة إيجابية على الرغم من اننا نحن ابتدعناها بانفسنا! ان المتمدنين لا يسيطرون على اخطار الطاقة النووية! كذلك فقدت اهتمامي بالثقافة الحضرية وادب المدينة (ادب الاستقرار) لقد اعتقدت ان مصر تسير على الطريق نفسه الذي سارت عليه اليابان، اعني من الزراعة الى المدنية والى التكنولوجيا ، تلك هي النتيجة التي وصلت اليها البلدان التي تقدمت تكنولوجيا . والذي حصل لي انني فقدت اهتمامي بتجربة مصر، أوقفت كل جهودي الدراسية في هذ الاتجاه، ووقتئذ لم أكن أعرف ماذا سأعمل في المستقبل.

بعد فترة، وجهت نظري الى جهات العالم العربي فرأيت البادية او فلأقل وجدت البادية! البادية التي لا توجد في اليابان ولا في اوروبا ، ولكنها موجودة في العالم العربي. من قبل كان عندي تجربة صغيرة هي رحلة الى حضرموت في اليمن وتلك التجربة صعدت من جديد وكشفت لي هدفا جديدا لدراستي، ولذلك سافرت الى البادية في سورية منذ ١٩٨٠ كان هدفي واضحا وهو ان أبحث عن معنى مختلف عما هو موجود في اليابان ومصر. في البادية وجدت ثقافة اخرى لا نعرفها في اليابان ببساطة لان بيئتنا ليس فيها بادية. هكذا بدأت تجربتي بالاقامة مع البدو كما فعلت في مصر وأقمت مع الفلاحين. ولقد استقبلني «بنو خالد» بكرم يليق بهم. خلال تلك الاقامة، كنت أبحث عن روايات تتحدث عن البدو وهكذا عرفت انتاج عبد السلام العجيلي وعبد الرحمن منيف خاصة «مدن الملح» واخيرا وجدت ابراهيم الكوني، الكاتب الليبي الذي ينتمي الى الطوارق، لقد قرأت

كتبه المنشورة كلها. لقد قدمت لي رواياته وقصصه القصيرة عالما غنيا كنت ابحث عنه، ولذلك قررت ان أبذل قصارى جهدى لدراسة هذا الكاتب، وتقديمه الى القارى اليابانى ترجمة ودراسة. تلك هي الخطوط العريضة لتجربة فردية صار عمرها أربعين عاما، اعتدي عليها واختصرها في سطور قليلة. ومن هذه التجربة تكونت في داخلي تساولات كثيرة وملاحظات كثيرة وخبرات لا اعرف كيف اصفها، ولكنني متأكد تماما من انني أريد ان يشاركني فيها القارىء العربي.

هل علي ان أقدم بكلام عاطفي عن محبتي للثقافة العربية؟ لقد اعطيتها عمري كله، وجهودي وعملي وهذا برأيي أرفع تقدير وأكبر محبة.

اما السؤال الذي أقلقني دائما فهو؛ لماذا أرى ان من واجبي ان أكتب باللغة العربية مباشرة وللقارىء العربي؟ وانا أعرف سلفا كم سترهقني الكتابة بالعربية ولكنني قلت في نفسي؛ لقد كتبت للقاري الياباني باليابانية وقليلا بالانكليزية فلماذا لا أكتب للقارىء العربي بلغته؟ لماذا لا أساهم في مناقشة المسألة مع القارىء العربي؟ انني أجازف فاسمي مغامرتي الصغيرة هذه؛ مساهمة في الاجابة على الاسئلة العربية الكبرى واقول بكلام اخر؛ انني أرى ان المواضيع التي سأثيرها في هذا الكتاب – على تواضع معالجتها – هي مواضيع تخصني شخصيا كانسان وككاتب وكياباني ايضا.

باختصار أريد ان أقول للقارىء العربي رأيا في بعض مسائله كما أراها من الخارج كأي أجنبي عاش في البلدان العربية وقرأ الادب العربي وأهتم بالحياة اليومية في المدينة والريف والبادية.

ان أهمية عملي هذا – فيما اذا أنطوى على أية اهمية – هو انه رأي من الخارج وأرغب عميقا في ان تسهم مشاركتي في الدخول الى مستقبل افضل.

انني أجد نفسي مضطرا لان اضيف بلغة صريحة مباشرة؛ انني أرى ان الحرية هي باب الانتاج وباب التواصل والحياة النبيلة ولذلك أرى القمع داء عضالا مقيما في الوطن العربي والعالم وما لم نتخلص منه فستفقد حياتنا كبشر الكثير من معانيها.

ثقافة الأنا وثقافة الآخر

منذ تسعة عشر عاما يتركز اهتمامي على ثقافة البدو في البلدان العربية. ولا حاجة للتذكير بانني جئت من ثقافة اخرى: اي من خارج البدو. ولذلك لا أريد ان أحصر كلامي عليهم فقط لانني أرى ان الموقف من ثقافتهم ينسحب على الموقف من الثقافة العربية، وعلى ثقافة بلدان العالم الثالث التي تختلف كثيرا او قليلا عن ثقافة اليابان، لذلك على الباحث هنا ان ينتبه الى الاختلاف بين من يملك الاشياء ومن لا يملكها، اي بين الذين تتوفر لهم حاجاتهم الاساسية، وتفيض عنهم، واولئك الذين لا يقدرون ان يحصلوا على الحد الادنى من حاجاتهم. ان تحديد هذا الموقف يقودني الى تحديد الموقف من الاخرين وطبيعة نظرتنا تجاههم. هناك صلة بين من يملك ومن لا يملك، وهذه الصلة هي التوتر والتردد، خاصة عندما يتعلق الامر بان يأخذ من لا يملك مساعدة ممن يملك وهذا الامر يصح على الافراد، وعلى الجماعات والشعوب.

لكي أوضح وجهة نظري حول علاقة الانا بالاخر ساقدم بعض الامثلة لكتاب ينتمون الى ثقافات مختلفة، وسأبدأ من بلدي اليابان.

يقول الناقد الياباني شوإتي كاتوفي حديث مع الاستاذ يوكيهيكو كاتاوكا، يقول عن الصلة بين اليابانيين!

"الانا يعتبر الاخر بيئة فيزيقية فقط، ولا يعتبره وجودا موضوعيا حيا مثله" ان هذا الناقد يتكلم على الحالة السيكولوجية عند اليابانيين، يرى انهم أصبحوا منغلقين على الاخرين.

وهو يقصد ان العلاقة بين اليابانيين أصبحت ضعيفة، فالفرد الياباني منطو على نفسه، ومنكمش تجاه الاخرين. اذن الموقف السليم هو ان نرى الاخر موجودا وجودا حيا مثلنا تماما. هذا الموقف اساسي للغاية عندما نواجه ثقافة الاخر وهنا ثقافة البدو او الثقافة العربية كلها، او ثقافة بلدان العالم الثالث.

يقول هذا الناقد في علاقة الياباني بالاخر – غير الياباني! ان المهم في النهاية هو ان نملك وعيا بان الاخرين (الاجانب) يعيشون في مجتمعات مثل مجتمعنا، هذا الوعي هو البداية، وهو ضروري ومطلوب عندما ننظر الى المجتمعات الاخرى. المهم هو الوعي الحقيقي ان المجتمع الياباني، والمجتمعات الاخرى يكونون معا المجتمع الانساني، واعتمادا على هذا الوعي فالمهم ان نملك امرين؛ اولهما وعي الحياة اليومية وثانيهما تخيل وجود الاخرين.

هذا الناقد يؤكد لنا على الوعي المشترك باننا جميعا بشر واننا كلنا معا نكون المجتمع الانساني، ثم يؤكد على ضرورة وعي الحياة اليومية. وبعد ذلك كله تخيل وجود الاخرين. هذا الافكار العامة صحيحة، وأظن ان الجميع يوافقون عليها، ولكن المهم هو الخطوة التالية فيما أرى؛ كيف نحقق كل هذا بين الانا والاخر؟

يقول الروائي الياباني المعروف، هيساسي إينووي حول مشكلة الارز في اليابان؛ تدور حاليا مناقشات في اليابان حول قضية الارز. وحين يناقش الناس هذه المشكلة فانهم يناقشون أسعار حبوب الارز فقط. انهم يتناسون نبات الارز نفسه. هؤلاء يتكلمون على الحبوب التي تظهر على الحافة العليا لنبات الارز، وانا لا أريد ان يتحدث الناس عن ريف اليابان بهذه النظرة.الضيقة؛ اي عبر حبوب الارز فقط. يوجد نبات الارز تحت حبوب الارز، وتحت النبات يوجد حقل الارز الذي يوجد بدوره في منطقة حيث توجد فيها ثقافة، وتوجد أشياء كثيرة.

من الواضح ان هذا الروائي يحذر من النظرة التجزيئية النفعوية التي تركز على المظهر النفعي المباشر؛ انه يؤكد على ان المهم هو ان نتابع الجزء في علاقته مع محيطه واتصاله بهذا المحيط. فلا يجوز لنا ان نقتطع الجزء من سياقه، بل علينا ان نتابع الموضوع في حلقاته المتسلسلة المتواشجة. انه يشير الى ضرورة فهم العلاقات، فهم التواصل ضد التقطيع او التجزئة وفي الوقت نفسه علينا ان نؤكد بوضوح على وجوب البدء من المعطى المادي الملموس.

هناك خطر دائم عندما نواجه ثقافة مختلفة، أعني ثقافة غير ثقافتنا ذلك الخطر قائم على الاعتماد على الافكار الجاهزة ومن تلك الافكار الجاهزة يتم القفز من

فكرة الى اخرى، ليتم الوصول الى استنتاج اخير حاسم. في هذه الحالة، ننحرف عن الواقع، الافكار الجاهزة تخرب البحث وتخرب فهمنا للواقع. لذلك أوكد باستمرار على ضرورة الاعتماد على التجربة المباشرة، اي ان نبدأ البحث من مادة ملموسة، وان نرى تلك المادة في بيئتها الثقافية عبر علاقاتها وتواصلها. وعلينا ان نحذر من استعمال النتائج القائمة على الافكار المسبقة الجاهزة. فالاعتماد على المادة الملموسة وحده يكون الفكرة السليمة نفسها. هذا الموقف مهم جدا عندما نواجه ثقافة اخرى. وبهذه الطريقة، نكون ادراكنا للاخر خطوة خطوة بانفسنا، واعتمادا على التجارب المعيشة وبهذه الطريقة نستطيع ايضا ان نتجنب الادراك الخاطيء للاخر عندما نناقش ثقافته، اي عندما نناقش وجهات نظر لاخرين تختلف عن وجهات نظرنا.

سأقدم مثالا فريدا لا نجده في ثقافتنا اليابانية، يقول الكاتب السنغالي «سينبين» عن نشأته؛ «انا ربيت في أسرة كبيرة بدلا من الاسرة النووية. طبعا عندي امي التي ولدتني ولكن ليس من الضروري ان أعرف من هي. ورغم انها ولدتني فهي لا تقوم بعمل شيء خاص لاجلي كابن خاص لها. من رباني هو أسرتي وليس أمي التي ولدتني وهذا الواقع لم يسبب لي الشعور بعدم الرضا او التشويه الاخلاقي.»

هذا المثال الجديد علينا في اليابان يكاد لا يصدق. ان حكم القيمة الذي قدمه سينبين ليس معروفا في تاريخ اليابان ولكي نفهم هذا الحكم ولكي نقبله كما هو فان علينا ان نعي نظام القيم في مجتمع السنغال والمجتمعات المماثلة، ويجب ان يكون وعينا لذلك كاملا. لذلك علينا ان نتجنبمعيار القيم الجاهزة التي تنتمي الى مجتمعات خارج مجتمع السنغال؛ اي علينا الا نسقط قيمنا الخاصة في مجتمعاتنا على مجتمعات اخرى، وبالمقابل، علينا ان نعتمد على معطيات من مجتمع السنغال هنا، وان نراها في علاقاتها وتواصلها وتركيبها، عندئذ نستطيع ان نتوصل الى حكم سليم حول نظام القيم في هذا المجتمع. من مثال سينبين، ندرك ان علينا ان نقبل قيم المجتمعات الاخرى كما هي دون ان نشوهها،

او نخفض قيمتها على ضوء قيمنا نحن، وعلينا اذن ان نرى المجتمعات الاخرى كما هي، وان نقبلها كما هي عليه.

عانى الطوارق من اضطهاد الاستعمار الايطالي والفرنسى وهم الان يعانون من ضغوط عدة بلدان افريقية تعمل على تحديد حدودها بعد تحررها من الاستعمار العسكرى الاوروبى. فالطوارق كانوا ضحايا الاستعمار، وهم الآن معرضون للتمزق خلف حدود بلدان مختلفة. لقد نزلت كوارث محزنة بالطوارق نتيجة الصدام مع الغزو الاوربي القادم من ثقافة اخرى، ولقد قدموا العديد من الضحايا كما هو معروف، فهل نحن مسؤولون - كبشر - عن الجرائم التي ترتكب ضد الجماعات و الشعوب في كل مكان؟

يقول الكاتب الياباني المعاصر «جونجي كينوشيتا»: هناك جرائم لا نتحمل مسووليتها مباشرة ؛ اي لم نشارك فيها، ولكن لا بد ان نتحمل مسؤوليتها. بالنسبة لي ليس عندي علاقة مباشرة بالجريمة؛ أعني لم أشترك في الجريمة بسبب العمر؛ مثلا استعمار اليابان لكوريا وغزو الصين وضحايا اوكيناوا، هذه السلسلة من الحوادث هي جرائم اليابان التي لا أستطيع ان أنساها.

المسألة هنا هي وعي الجريمة، اي ان نعي الاخطار التي تحدث نتيجة الاحتكاك المسلح مع ثقافة اخرط، وان نعي جرائم الحرب العالمية الثانية وغيرها يعني ان نحتاط كيلا تتكرر تلك الاخطاء، اي ان نمنع وقوع الجريمة. في العالم الثالث مشاكل كثيرة لا نستطيع ان نتهرب من المسؤولية تجاهها لاننا ليس لنا علاقة مباشرة بها، وهذه المشاكل تحتاج الى حكم، اي الى طرف ثالث يراقب، ويشاهد ويحكم. الطرف الثالث مهم جدا عندما يحصل صراع بين طرفين، الفلسطينيون والصهاينة مثلا، في هذا المثال نحن نحتاج من يرى ويعي الجريمة حتى لو كانت بعيدة عنا تاريخا ومسافة، اذن الندم الذي يدعو له كينوشيتا ليس كافيا، اننا نحتاج الى فعل لكي نحكم على الجريمة، ولكي نمنع تكرارها.

يقول الروائي هيساشي إينووي ؛ قديما كان يوجد الفرد الذي يعلن انه على استعداد لان يضحي بنفسه اذا كان يستطيع انقاذ العالم، قديما كان هناك أفراد

مستعدون لان يضحوا بانفسهم في سبيل انقاذ العالم اعتمادا على ذلك الواقع القديم الذي عاشوه واعتقدان ذلك الشخص يظهر الان في شكل آخر، اعتقد انه موجود بشكل آخر. في هذا العالم يوجد المسيح الذي غير شكله لا يحترمه الناس بل يحتقرونه ولكنه يبذل جهوده باستمرار ويحاول ان يغير العالم. لا اعرف تماما ولكن ربما بالمصادفة يوجد في العالم الثالث أشخاص كذلك، انني أريد ان أومن بذلك لكي أقوي عزيمتي ولكي أمتن ثقتي بالعالم. أنا متأكد ان يوجد ذلك النوع من الأشخاص في البلدان العربية لاني قابلتهم.

ينقسم العالم الان الى دول غنية واخرى فقيرة، وفي كل مكان هناك اغنياء يملكون ما يزيد على حاجاتهم وترفهم، وهناك فقراء معدمون لا يجدون طعام يومهم، يحصل الان ان البلدان الغنية التي كانت في معظمها تستعمر البلدان الفقيرة حاليا – يحصل انها تقدم مساعدات اقتصادية للدول النامية. يبدو الامر كانه علاقة بين دولة ودولة ولكن أريد ان أتناول المسالة من وجهها الانساني، اي عندما تاخذ تلك المساعدات شكل علاقة شخص يقدم عونا ماديا الى شخص آخر. اذن هنا يوجد فرد يستجدي – بصورة مباشرة او غير مباشرة – من آخر. وبالطبع هذا الوجه الذي سأناقشه لا يقلل من اهمية دراسة الوجوه الاخرى لتلك المساعدات الاقتصادية.

تبين لنا التجارب اليومية الملموسة عمق المشاكل التي تحدث عندما تحتك ثقافتان لكل منهما نظام قيمه الخاص، وساعرض هنا بعض الامثلة.

تتحدث الروائية الامريكية «فيدا نبكي» في روايتها «الامل لا يموت» تتحدث عن المساعدات التي كانت تقدم للاجئين الفلسطينيين بعد النكبة عام ١٩٤٨ م؛ «حاولت أمل ان تجد شيئا مناسبا لها بعد ان وجدت ملابس صغيرة من اجل ليلى ولكن كانت كل الملابس قصيرة جدا. وأمل تفضل ملابسها الوطنية المحتشمة التي تغطي جسمها. زوج من الفيزونات النسائية الصفراء. انها صدمة ثانية لها. ان قيمة هذين البنطلونين تعادل عشر نقاط (كان يحق لكل لاجيءان يختار ما يعادل عددا محدودا من النقاط) ولانها للنساء فلا يستطيع اي رجل ان يرتديها.

كان هناك ثلاثة اثواب للبنات ولكن قياسها كان لبنات اكبر من ليلى، وهناك تنورات قصيرة ولكن كيف يمكن لوالديها ان يسمحا لابنتهما ان تلبس تنورة قصيرة الى ما فوق الركبة؟

هذه الرواية الوثائقية تصور اوضاع اللاجئين الفلسطينيين مباشرة بعد النكبة وأمل شابة فلسطينية كانت قد تزوجت منذ فترة قصيرة، اما زوجها فقد التحق بالمجاهدين، وهي لا تعرف مكانه لذلك أدخلت الزوجة الشابة أمل الى مخيم اللاجئين حيث كان عليها ان تقبل نصيبا من المساعدات المادية من منظمة «الاونروا» فليس لامل اي مصدر للرزق ولكن «الملابس كانت قصيرة جدا» وهي تفضل ملابسها الوطنية المحتشمة التي تغطي جسمها «وما من امرأة عربية تستطيع ان تلبس ذلك البنطلون الذي يلتصق بالجسم ولانه كان للنساء فلا يستطيع الرجال ان يرتدوه.

المسألة هنا ليست متعلقة بالذوق، او الحجم. انها مسالة فرد اغتصبت ثقافة وطنه، واغتصبت عاداته، ان الرواية هنا تتحدث عن معنى اغتصاب الوطن، واغتصاب الثقافة. ان الملابس التي قدمت هنا للاجئين تستهتر بشكل همجي بنظام القيم في الوطن العربي هذا النظام الذي يشمل ملابس المرأة المسلمة والمسيحية على السواء. اذن الاهم قبل المساعدة المالية هو ان نفكر بثقافة الاخر الذي نقدم له المساعدة.

يتحدث مواطن اوروبي عن تجربته العملية خلال تقديم المساعدات للطوارق عندما تعرضوا لكارثة الجفاف، يقول «جيلود سوبيتولا»: المواطن الاوروبي اما ان يشيح بوجهه عن المشكلة واصحابها تعاليا، واما ان يفتح محفظته ويقدم صدقة بسيطة للطوارق المنكوبين. وكلا الموقفين يرى ان الجفاف في الصحراء الافريقية الكبرى لا يعني سوي انعدام الطعام. ولذلك تعلمت من سلوك الاوروبيين هذا ان أبتعد عنهم بالتدريج. بالنسبة للسكان في تيما، الجوع والجفاف هما تحد لاخلاقهم ومبادئهم وصلتهم بالله، وتصرفهم تجاه الموت. هذا التحدي يرتبط بكل تلك القيم، وبالنسبة لاؤلئك السكان فان طلب الطعام يساوي في القيمة

المواضيع التي ذكرتها... لقد اكتشفت مدى صعوبة ان أفسر للاوروبيين ان الموضوع ليس مسألة جوع فقط، وليس موضوع ان يعيش الفرد اذا أكل. المسألة بالنسبة للطوارق هي كيف يعيشون بكرامة وسط المصاعب الكثيرة التي تواجههم. لقد اعتقدت ان تصويري لهذه النقطة بالذات - من خلال عملي - امر مهم للغاية.

مرة ثانية اعيد ما قاله الناقد الياباني كاتو. ان المهم في النهاية ان نملك وعيا بان الآخرين الاجانب يعيشون في مجتمعات مثل مجتمعنا هذا الوعي هو البداية وهو ضروري ومطلوب عندما ننظر الى المجتمعات الاخرى. من المؤكد ان الذين يعانون من كارثة الجفاف والجوع لم يفقدوا الخصائص الاخرى المرتبطة بالجوع على الرغم من ان حياتهم نفسها مهددة بالخطر. نحن لا نستطيع ان نقتطع الجوع من علاقته بالقيم المقترنة به عند الطوارق.

في اليابان، بعد الحرب العالمية الثانية، مد الياباني يده الى الاميريكي يطلب مادة متوفرة عند الآخر. وقتئذ كان شعورنا غير واضح، فمن جهة لم يكن عاراعلينا ان نأخذ ممن يملكون ولكن من جهة ثانية، لم تكف نفوسنا عن الاضطراب والتوتر الداخلي، والشعور بالحرج. حصل لنا هذا في اليابان بعد كارثة الحرب العالمية الثانية، اي عرفنا معنى الا نملك، وان نطلب ممن يملكون، وعرفنا معنى الصدام بين ثقافتين مختلفتين، او الاحتكاك بين ثقافتين مختلفتين.

أذكر من تجربتي الشخصية حادثة صغيرة لا انساها. كنا في زيارة لليمن في تموز ١٩٧٠ م، وكانت اليمن وقتئذ تعاني من الجوع. وعندما توقفنا في قرية صغيرة بين عدن وصنعاء، اقترب مني صبي لا يتجاوز عمره عشر سنوات ومد يده دون ان ينبس بكلمة واحدة. كان صامتا مضطربا وبسهولة يستطيع المرء ان يرى الحرج الشديد الذي يعانيه. لقد قدرت عندئذ انه يمد يده للمرة الاولى. تلك الحادثة بقيت حية في نفسي وما عداها من تلك الزيارة ذهب في الضباب، لانني فهمت من ذلك المنظر معنى التوتر الحاد الذي يعانيه الانسان عندما يطلب شيئا من الآخرين. انه يجتاز حاجزا روحيا. ولذلك لا بد من وجود سبب قوي يهدد حياة

السائل والا ما استطاع اختراق الحاجز الداخلي، فما هو هذا الشعور الحرج الذي يطلع من داخلنا عندما نطلب شيئا من الاخرين؟

في الحوار الذي ذكرته آنفا بين الكاتب السنغالي سينبين والاستاذ كاتا وكا يحدث ما يلي؛ يقول كاتاوكا بعد ان سمعت حديثك عرفت ان البلدان الافريقية تعاني من مشاكل متعددة منها الجفاف والديون الخارجية لا بد ان تتغلبوا عليها. هل نستطيع كيابانيين ان نساعدكم في شيء؟ أجاب سين بين «لا نريد منكم شيئا على الاطلاق».

في هذا الجواب البسيط المباشرنستطيع ان نقرأ معاني عديدة فالانسان لا يطلب بسهولة. ويجب على الاخرين، من ثقافات البلدان الغنية ان يدركوا ما يعانيه الاخر المحتاج عندما يسأل معونة فالمعونة هنا تطلب لكي تحافظ على «جزء» من بقاء السائل.

وسينبين نفسه يدرك اهمية الحوار مع الثقافات الاخرى وضرورة الاتصال بها يقول في الحوار نفسه؛ أرسلت مساعدات مادية ونقدية الى السنغال ولكن تلك المساعدات لم تلعب اي دورفي تطوير بلدنا، اذا اضطررتني على الكلام أقول؛ أريدكم ان تعطوا فرصا للجيل الجديد في السنغال لكي يتعلم التكنولوجيا لتطوير بلدنا.

مشاكل بلدان العالم الثالث كثيرة وخطيرة. والفقر موجود بقوة في قاع المجتمع، ولكن من الضروري ان نفهم ان الفقر في اي منطقة من العالم له ميزات خاصة بتلك المنطقة وبالتالي تكون معالجته مرتبطة بخصوصية معانيه وارتباطاته. المعيار الذي يعبر عن الفقر مختلف من بلد الى بلد ومقياسه مختلف، ومعالجته مختلفة أيضا وعلى سبيل المثال، في مجتمع البدو الطبيعة هي التي تسبب الفقر لأنها تخطف المواشي بسبب الجفاف، وفقدان الماء والاعشاب. وهذا السبب مختلف من حيث المبدأ عن السبب في المجتمعات الصناعية ومجتمع المدينة ولكن رغم الفقر في الصحراء فان البدو يحافظون على استمرار اخلاق الضيافة والصدقة دون ان تتاثر او تتدنى تحت ضغط موضوعة الفقر.

نحن نعرف ان العالم الثالث يشهد حالات من الفقر تتجاوز حدود المعقول، ان الامر يصل الى حد تهديد حياة الناس بصورة خطيرة. يذكر صاحب لكتاب «الطوارق تحت الجفاف والجوع» الذي ذكرته سابقا يذكر ان النساء يجمعن روث الماعز، وينقين الحبوب التي لم تهضم فيما تقدم.

حاولت ان أوضح كيف يجب علينا ان ننظر الى ثقافات بلدان العالم الثالث، وقد علقت على بعض نقاط الموضوع من خلال بعض الامثلة التي تتقاطع في نقطة واحدة ساسميها بعد قليل.

لماذا يشعر الانسان بالحرج عندما يستجدي شيئا من الآخرين على الرغم من انه يكون في امس الحاجة؟ ولماذا يطلب عندما تصل الحاجة الى المستوى الحاد؟ لماذا لا يمكن ان نحل مشكلة الجوع على انها مسألة الجوع فقط ؟ اي لماذا يرتبط الجوع بقيم اخرى؟ كيف يجب ان نساعد الآخر او نفكر مشكلته؟ هذه الاسئلة وما هو من نوعها تلتقي في نقطة هي قرب شرف الانسان، او في ما يسمى في اللغة العربية؛ الكرامة. ومفهوم الكرامة في القاموس العربي ينطوي على؛ السمو، النبل، الكرم، الشرف، الاحترام، التقدير، الجلال، المشاعر النبيلة، المبادىء الرفيعة.

الكرامة او الشعور بالشرف هو الذي يصعد من الداخل عندما يضطر الفرد في حالة خاصة لان يطلب من الآخرين. ولكن علينا ان نفهم الكرامة في حركتها وتطورها اذ لا يكفي الوصف ولا يكفي ان نرد المشكلة الى الشعور بالشرف. علينا الا نسدل الستارة أبدا، لا بد من مراقبة ظهور حالات جديدة بمتابعة كافة أشكال تعبيرات الكرامة على مستوى الفرد وعلى مستوى الشعب واعتقد ان علينا ان نوسع مفهوم كرامة الانسان، من خلال دراسة أعماله وسلوكه ومسيرته كلها.

ان المهم في النهاية هو ان علينا ان نقبل قيم المجتمعات الاخري كما هي دون ان نشوهها او نخفض من قيمتها على ضوء قيمنا نحن. وعلينا اذن ان نرى المجتمعات الاخرى كما هي، وان نقبلها كما هي عليه.

تجارب وأفكار:
كارثة القمع وبلوى وعدم الشعور بالمسؤولية

نحن في اليابان عرفنا تجربة طويلة مع القمع وعانينا من كافة أشكاله في تاريخنا. وحتى بعد الحرب العالمية استمرت مظاهر القمع في الحياة الاجتماعية اليابانية. بعد ذلك التاريخ المرير الطويل خرجنا من القمع نحن لم نتخلص تماما من ممارسات تصادر حريات الافراد ولكننا تعلمنا من تجاربنا وعرفنا كيف نتصرف بمسؤولية تجاه الوطن وتجاه الآخرين. لقد اجتزنا مسافة طويلة على طريق الحياة وما زلنا نعمل بدأب لكي نتحرر من رواسب القمع التي ورثناها عن ماضينا ولكي نتحرر من الاشكال القمعية الجديدة التي ترافق التطور الصناعي الكبير. أظن ان الياباني يستطيع الان ان يميز القمع بوضوح علي َضوء تجربته. وانا حين أتكلم على القمع في الوطن العربي فإنني أتكلم حقيقة من المقارنة المباشرة او غير المباشرة بين المجتمعين العربي والياباني. الوطن العربي ما زال بكامله يدفع ضرائب القمع مع استثناءات ليست كبيرة. لا أريد هنا ان أدخل في لعبة الارقام ولن أجري دراسات مقارنة تحليلية للدساتير والقوانين العربية، فلقد قام آخرون بذلك. انني ببساطة سأقدم حوادث واقعية صغيرة ولكنها كافية، بالنسبة لمن يرى من الخارج. لان تكشف عن آليات القمع اليومية في المجتمع العربي. كما تبين في الوقت نفسه تلازم القمع وعدم الشعور بالمسؤولية تجاه الوطن وبالتالي تجاه الآخرين من العرب والاجانب.

الخوف

مرة كنت أستمع من الراديو الى حوار مع طالب مصري تخرج في قسم اللغة اليابانية في جامعة القاهرة. ذلك الشاب جاء الي اليابان وهو يتحدث عن تجربته

ومشاهداته. تحدث عن المواصلات في طوكيو وعن تنظيمها ودقة مواعيدها وقارن بينها وبين المواصلات في مصر. عندئذ قال معلقا لا بد ان نتعلم من تجربة اليابان، لا بد ان نغير كل نظامنا. فجأة قاطعه المذيع قائلا: الكلام عن تغيير النظام غير مسموح به. عندئذ التفت بدوري الى كلمة «نظام» وتذكرت كم هي حساسة وخطرة في مصر. وفى البلدان العربية الاخرى. وتذكرت كيف يخاف العرب من استعمال بعض الكلمات.

بالطبع يوجد خوف في اليابان. نحن نخاف من الزلزال ونخاف من حوادث محطات توليد الطاقة بالطاقة النووية ونخاف ايضا من اسلحة كوريا الشمالية ولكن ما أريد الحديث عنه هو كيف نواجه الخوف؟ عندنا في اليابان نحاول ان نوضح اسباب الخوف وما وراء الخوف والظروف التي تحت الخوف لكي نتغلب عليه سويا. المهم لا يوجد عندنا الشخص الذي يهدد الناس ويخيفهم ليحقق منفعة شخصية. ولكن في البلدان العربية يوجد الخوف الذي يستفيد منه بعضهم ويوجد أشخاص كثيرون يستغلون خوف الناس وهذا كله مرتبط بغياب العدالة الاجتماعية في البلدان العربية. ما أريد ان أوكد عليه هو ان مواجهة الخوف مختلفة اختلافا كبيرا بين اليابان و البلدان العربية.

الخوف أيضا

من يعرفون البلدان العربية قرؤوا عن السجون وهم غالبا يعرفون اسماءها من الكتب ومن الصحافة العالمية وبعض جماعات المعارضة الصغيرة. والذي يحدث عندما تسأل عن موقع سجن ما بالتحديد فان من نسالهم يصابون بالذعر وطبعا لا يجيبون ويهربون كانهم واجهوا غولا مخيفا. منذ ثلاثين سنة لم اعرف موقع سجن عربي تماما. هذا امر ممنوع ومحرم. كيف؟ هذا يحصل فعلا. اما الأدهي من ذلك فهو خوف الناس من رجال الامن سواء كان رجال الامن شرطة او شرطة سرية او مخابرات كما يسمونهم في البلدان العربية. وليس الخوف فقط وانما الامتياز الاجتماعي والاقتصادي الذي يتمتع به رجل الامن. في الريف

عرفنا ان الفلاحين لا يحبون الشرطة وهذا أمر مفهوم لان هناك مخالفات لا نهاية لها ولكن ما هو غير مفهوم هو الاحترام الكاذب الذي يظهره اولئك الفلاحون لرجال الشرطة والكرم الباذخ في المآدب التي يقيمونها لهم! تلك الازدواجية سببها الاول والاخير هو القمع والخوف الثابت من بطش السلطة والمسؤولين وما اكثر النكات والطرائف التي يتداولها الناس عن اختفاء فلان او تبخر علان لانه تفوه بكلمة ضد مسؤول!

حديث مع يوسف ادريس

الكاتب المعروف يوسف ادريس زار اليابان عدة مرات. ولقد قال لي: انه كان يبحث عن سر نهضة اليابان التي ادهشت العالم. هو نفسه كان مستغربا ويريد ان يعرف الاسباب العميقة التي جعلت بلدا صغيرا معزولا كاليابان يصبح قوة صناعية واقتصادية كبرى. وبعد الزيارة الثالثة سألته: هل وجدت الاجابة في اليابان؟ قال لي: نعم، عرفت السبب. مرة كنت عائدا الى الفندق في وسط طوكيو حوالي منتصف الليل، ورأيت عاملا يعمل وحيدا. فوقفت أراقبه لم يكن معه أحد. ولم يكن يراقبه احد ومع ذلك كان يعمل بجد ومثابرة كما لو ان العمل ملكه هو نفسه. عندئذ عرفت سبب نهوض اليابان وهو شعور ذلك العامل بالمسؤولية النابعة من داخله بلا رقابة ولا قسر. عندما يتصرف شعب بكامله مثل ذلك العامل فان ذلك الشعب جدير بان يحقق ما حققتموه في اليابان.

بالطبع انا لا أقصد هنا مفاضلة ولست من القائلين بتفوق شعب على آخر. ولقد كررت مرات عديدة ان علينا الا نسقط قيمنا المسبقة على المجتمعات الاخرى. ولكنني أعرف من تجربة الاقامة في البلدان العربية معنى عدم الشعور بالمسؤولية

فى الطريق الى بيت صديقي

أذكر حادثة بسيطة للغاية موجودة على نطاق واسع. في عاصمة عربية ذهبت

لأزور صديقا عربيا. وعندما وصلت الى الحي الذى يسكنه فاجأتني القاذورات وفضلات الطعام وكافة أشكال النفايات وأكياس الزبالة. كانت منشورة بعشوائية على الارض، والشارع والزوايا. على اي حال، وصلت الى البناية التي يسكن فيها ذلك الصديق. المدخل كان قذرا والدرج ايضا ولكن لدهشتي فقد وجدت عالما آخر خلف باب صديقي. كان البيت نظيفا للغاية وكان مرتبا وأنيقا ومريحا. لقد فهمت ان كل ما يخص الملكية العامة يعامله الناس كانه عدو فينتقمون منه ولذلك نجد المقاعد في الحدائق العامة مكسرة او مخلوعة ونجد معظم مصابيح الشوارع محطمة. كما ان دورات المياه العامة قذرة بصورة لا توصف. وحتى المباني الحكومية فقد لحق بها كل انوا ع التخريب الممكنة. لقد فكرت طويلا في ظاهرة تخريب الممتلكات العامة وفهمت ان المواطن العربي يقرن بين الاملاك العامة والسلطة وهو نفسيا في لا وعيه على الأقل ينتقم سلبيا من السلطة القمعية فيدمر بانتقامه وطنه. ومجتمعه بدلا من ان يدمر السلطة نفسها. تلك المظاهر السلبية التي ذكرتها اختفت تماما من المجتمع الياباني. ولكنها لم تختف منذ زمن طويل. لقد استمرت الي ما بعد الحرب العالمية الثانية بسنوات. ولكننا انتصرنا عليها وتحررنا منها وعرفنا مسؤوليتنا عن الملكية العامة معرفة جيدة. لا أستطيع الفصل بين القمع وعدم الشعور بالمسؤولية في المجتمع العربي. كيف يتبدى الامر للآخر غير العربي؟ بالاخص نحن القادمين من اليابان؟

في المطار: عتبة البلاد

ربما ان الياباني يفكر أول ما يفكر بالمطار عندما يقرر السفر الى البلدان العربية. في المطار نواجه صدمة ونشعر بالاهانة. بالنسبة لي أعرف ان ذلك ليس الوطن العربي الذي أريد ان أعرفه وأحترمه وافهمه. في المطار يعامل القائمون على الأمن المسافرين بشكل فظيع. يفرضون عليهم ان يقفوا في ارتال عشوائية بلا نظام. عادة يخرق النظام من له معرفة بين العاملين في المطار او شخص مهم او مشابه ذلك.

واحيانا يغيرون مكان اصطفافنا فجأة وبلا تفسير. ثم يأتي دور تفتيش الحقائب. على المسافر ان يفتح حقيبته ثم يبدأ الموظف المسؤول بنبش الأغراض بطريقة فظة عشوائية. بعد الانتهاء يترك الحقيبة على حالها ويمضي رافعا رأسه بزهو. نحن نفهم الحرص على الامن وهو ضروري للغاية دائما، في المطار وغير المطار ونحن نفهم ايضا ان بعض المطارات ليس فيها اجهزة حديثة لسبر الحقائب كل ذلك نفهمه ولكن ما لا أفهم ذلك التعالي وتلك الغطرسة خاصة من المسؤولين الكبار كضباط الشرطة او الامن لا اعرف. ان الامر يستغرق ساعات احيانا بين وقوف وتفتيش ومراجعات. تلك صورة مؤلمة تفضح النظام بكامله. أعني النظام السياسي والاجتماعي والاخلاقي وتبين كيف يتلازم القمع مع عدم الشعور بالمسؤولية تجاه سمعة الوطن وتجاه الآخركانسان صاحب كرامة.

في المطار أيضا

منذ نحو عشرين سنة كنت قادما من اليابان الى مصر وفي مطار القاهرة بدلت بعض النقود من المكتب المخصص للاجانب لتغيير العملة. وفي احوال كهذه يكون المسافر الاجنبي مرتبكا ومشغولا باجراءات الدخول. عندما استلمت النقود المصرية وضعتها في المحفظة بلا تدقيق، اذ لا يخطر لي ان يغش بنك في عد النقود ولكن لدهشتي وجدت المبلغ اقل مما يجب ان يكون وبالطبع لم أفعل شيئا ولكن الغريب ان تلك الموظفة التي أجرت عملية التبديل كانت تبدو لطيفة ومع ذلك سرقتني. لقد استغلت وظيفتها واختلست مبلغا مني ولذلك أقدر انها كررت هي او غيرها العملية مع عدد غير قليل من زوار مصر.

في المطار ثالثا

ومنذ سنوات قريبة كنت في مطار الرباط وقبل ان أدخل من بوابة القادمين ندهني احد الموظفين وطلب مني ١٠٠ مائة درهم فأعطيته على الفور لانني ظننت

ان المبلغ شكل من اشكال رسوم الدخول الى المملكة المغربية. ولكن بعد قليل شاهدت موظفا آخر يتجه نحو الذي اخذ المبلغ وبدأ يوبخه ويقول له كلاما يدل على انه سرقني. استمر الموظفان في الجدال ولكن لم يعد لي احد المائة درهم. انني أفهم ان يوجد موظف يستغل وظيفته لصالحه الخاص ولكنني لا افهم لماذا لا يحاسب مثل هذا الموظف عندما يكتشف الآخرون فساده. هل يعني ذلك ان الجميع يستغلون وظائفهم؟ وان الجميع اتفقوا بالصمت على قبول هذا الواقع؟ لا أعرف تماما ولكن الحوادث كثيرة بحيث تبدو وكانها ظاهرة عامة.

في المطار أخيرا

منذ سنوات بعيدة كنت في عاصمة عربية وكان موعد طائرتي في منتصف الليل ولذلك أصر صديقي وزوجته على مرافقتي الى المطار ذلك الصديق رسام معروف جيدا في الوطن العربي وتفاجأت في المطار بعدد من الاصدقاء جاؤوا لوداعي تلك العلاقة الحميمة هي التي أريد ان أفهمها في الوطن العربي على انها تمثل الاخلاق العربية، ولكن حصلت حادثة صغيرة عكرت كل شعوري الجميل ذلك فلقد تبين أن الطائرة ستتأخر خمس ساعات وذلك أمر مفهوم غير ان موظفة في المطار قالت لزوجة صديقي «هل تريدين ان تتخلصي من هذا الخواجا وتصرفيه؟» بالطبع لم تقدر تلك الموظفة انني أفهم اللغة العربية. انا لا أفهم ماذا يخسر اولئك عندما يعاملون الناس باحترام او ماذا يكسبون عندما يعاملون بطريقة سيئة. انه عدم الشعور بالمسؤولية من جهة والقمع الذي يصبح قاعدة في التعامل من الاعلى الى الادنى من جهة ثانية وعندما يحتل الفرد موقفا أعلى من غيره يبدأ بممارسة القمع على من هم دونه.

الرشوة

سأتابع مسألة الزائر الاجنبي بقليل من التفصيل. يحدث احيانا ان الياباني يحصل على تأشيرة من سفارة البلد العربي الذي سيسافر اليه مدة شهر

وشهرين وتلك الموافقة تكون رسمية مصدقة من السيد السفير. ولكن من الغريب ان البلد نفسه لا يقبل بذلك بل يكون على ذلك الياباني ان يراجع دائرة الهجرة. ودوائر الهجرة في البلدان العربية وجه آخر مرير من وجوه القمع وعدم الشعور بالمسؤولية. لقد تعودت في ذلك الجو من الفوضى والاذلال ان اعتمد على صديق عربي لكي أحصل على الموافقة على اقامة، اما انا فاضع نفسي كحجر تماما كحجر منتظرا انتهاء المعاملة. مرة شاهدت راهبة تدفع رشوة في دائرة هجرة فضحكت وقلت لصديقي؛ لي أسبوعان هنا وهما غير كافيين لأتكيف مع الوضع وأتصرف مثل تلك الراهبة. أقدر أن عندها تجربة طويلة في الاقامة والتعامل مع دوائر الهجرة.

حادثة في الشارع

مرة كان باحث ياباني يتقن العربية اسمه أكيهيروتاكانو. كان يتمشي على غير هدي في عاصمة عربية ودون ان يدري مر امام بيت احد المسؤولين وذلك الباحث يبدو وجهه وكانه يبتسم او يضحك باستمرار وفجأة تقدم منه حارس ذلك المبني وصفعه على وجهه بحجة انه يضحك عليه او يسخر منه "بالطبع كان الامر فظيفا ومذهلا لذلك الياباني شيء لا يصدق ولا يخطر لنا على بال! توجه ذلك الصديق الى السفارة اليابانية وقدم تقريرا بالحادثة غير ان المسؤول قال له "انت محظوظ لانه اكتفى بان صفعك! ان جواب السفارة اليابانية اكثر جبنا وخسة من تصرف الحارس نفسه. انه موقف غير مسؤول اريد ان اقول ان سفاراتنا في البلدان العربية لا تفكر جديا ان تفهم ما يجري في المجتمعات العربية خاصة من جهة القمع وهي سفارات للاعمال التجارية والادارية. لقد تصرفت السفارة هي الاخرى مع السيد تاكانو بنذالة. ذلك قمع وضيع ايضا لا يليق ببعثة ديبلوماسية. حوادث كثيرة عرفتها من خلال اقامتي في البلدان العربية تقدم وجوها فظيعة للقمع وعدم الشعور بالمسؤولية. ولعل القاريء لاحظ انني لم أذكر اسماء الاشخاص ولا اسماء المدن وانا أقصد من ذلك امرين؛ اولهما ان الحوادث

تكررت معي بصورة متقاربة في اغلب البلدان العربية لذلك لا اريد التخصيص وثانيهما انني أريد ان أستمر في علاقتي مع المجتمعات العربية؛ اي انا خائف من ان امنع من دخول هذا البلد او ذاك. هل لاحظتم الى اين وصلت ظلال القمع؟ كما انني أخاف علي أصدقائي في الوطن العربي واخشى ان يتعرضوا بسببي الى مضايقات او اذى. على اي حال انا زرت معظم اقطار الوطن العربي وأقمت فيها فترات متفاوتة. لقد فهمت ان هناك محرمات لا يجوز الاقتراب منها؛ السياسة والجنس والدين ايضا. هذه المواضيع غائبة عن التلفيزيونات العربية وعن الصحافة ولولا بعض الدراسات والنصوص الروائية او القصص القصيرة لما وجدنا لها اي اثر في الاعلام المرئي او المسموع او المكتوب ربما يكون لبنان استثناء. على اي حال لا يجوز لاحد ان ينتقد حتى القريب المليون لاي مسؤول عربي! نحن عندنا في اليابان الصورة مختلفة ومن زار طوكيو فلا بد انه رأى سيارات تقف علي ناصية الشارع تحمل مكبرات صوت تهاجم رئيس الوزراء والوزراء والحزب الحاكم وهكذا. على الاقل نقدر ان نقول اننا نملك حرية واسعة في مناقشات كافة القضايا السياسية والجنسية علنا وبلا قيود.

حادثة سرقة

سأتشجع وأذكر أسماء الأمكنة قليلا. مرة كنت عائدا من الاسكندرية الى القاهرة مع زوجتي ولقد وضعت جهاز الراديو في صندوق السيارة الخلفي وعلى الطريق نزل بعض الركاب. المهم بعد وصولنا الي المحطة الاخيرة لم أجد الراديو وعندما سالت السائق عنه قال "انه لا يعرف اين هو. انا غضبت وأخذته الى قسم الشرطة. لكم ندمت على ذلك؟!

فور وصولنا قدمت للشرطي قصة الراديو المسروق وعلى الفور بدأ يعامل السائق كمجرم. بعد قليل جاء ضابط وفي طريقه امسك برجل فى يديه قيد وأخذ يضربه ضربا عشوائيا حتى سال الدم من رأسه كمظاهرة تهديد. كنت مذهولا من الأمر كله ولذلك لم أقل كلمة ولم أطلب التدخل. نحن في اليابان لا نستطيع ان

نفهم او نقبل سلوكا من هذا النوع. لقد اختفى هذا السلوك تماما من عندنا، وحتى عندما تريد الشرطة ان تراقب شخصا او رقم هاتف فانها تحصل على إذن رسمي من المحكمة. اما في البلدان العربية فان اجهزة الامن تراقب الهواتف والافراد والبيوت وحتى الهواء بلا اذن ولا محكمة ولا قانون. ذلك هو القمع الذي أعتبره كارثة مقيمة في المجتمعات العربية.

عن كيفية الحكم

عندنا في اليابا ن النظام إمبراطوري، لكن الامبراطور نفسه ليس له اي صلاحيات سياسية على الاطلاق ورئيس الوزراء يتغير حوالي كل سنتين لكي نمنع ظهور اي شكل من اشكال استبداد حاكم فرد فالحكم الطويل يعلم الحاكم القمع اذا كان لا يعرفه. ولكن الحاكم في البلدان العربية يبقى حاكما مدى الحياة سواء اكان ملكا او سلطانا او أميرا او رئيس الدولة او رئيس جمهورية الا اذا أغتيل او حصل انقلاب مسلح ضده. على اي حال نحن لا نفهم هذا في اليابان. نحن نظن ان الحاكم يجب ان يشعر بالمسؤولية تجاه شعبه وعليه ان يعطي مجالا لغيره لكي يخدم هذا الشعب. اما في الوطن العربي فالسلطة والشخص شيء واحد لا يمكن الفصل بينهما. فالحاكم العربي ما زال يتمتع بالامتيازات التي كان يتمتع بها الحاكم في العصور ما قبل الحديثة. بالطبع هناك استثناءات ولكنها الاستثناءات التي تثبت القاعدة كما يقال. والمعيار الوحيد لكرامة المواطن ووطنيته هو مقدار ولائه للحاكم وطاعته له والتسبيح بحمده في جميع الاوقات والظروف والمناسبات وهذا كله غريب علينا نحن اليابانيين في الوقت الحاضر على الاقل.

بعد الحرب العالمية الثانية تناوب على منصب رئيس مجلس الوزراء أكثر من عشرين شخصية سياسية ليس لانهم كانوا غير جديرين او غير مخلصين ولكن لان قيادة الدولة المعاصرة اكبر من امكانيات اي فرد لوحده مهما كان موهوبا وقويا كما ان هذا المنصب عندنا يمارسه المسؤول مرة واحدة فقط وهكذا

نضمن عدم ظهور مركزية فردية مهيمنة. اذكر على سبيل الدعابة الواقعية ان اليابانيين الذين يقيمون اكثر من شهرين في الخارج يسألون سائق التاكسي الذي يوصلهم الى بيوتهم من المحطة يسألون عن اسم رئيسنا الحالي. واحيانا يسمعون اسما جديدا. ولو افترضنا ان الزعيم السياسي استثنائي فاننا نعرف ان مهام قيادة الدولة أوسع من اي فرد استثنائي.

المساواة أمام القانون

أذكر مثالا من تاريخنا القريب. السيد "تاناكا" كان واحدا من أقوى الشخصيات التي شغلت منصب رئيس مجلس الوزراء عندنا. واليابانيون أيدوه خاصة في منطقته لانه أوصل لها خط القطار السريع. وابنته الان عضوة بارزة في البرلمان الياباني. ولكن الشرطة اعتقلته من بيته. وذهب الى السجن بالقبقاب الياباني! عندما اكتشفت الصحافة والبوليس فضيحة لوكهيد لم يستطع السيد تاناكا الهروب من المسؤولية فسجن وحوكم كاي مواطن عادي. عندنا تلعب الصحافة والشرطة دورا فعالا في متابعة كافة اشكال مخالفة القانون، ومن الصعب ان ينجو احد اذا ارتكب جريمة الفرد هنا لا يحميه شيء اذا كان مذنبا. اما في البلدان العربية فان القانون يجري تطبيقه على الشعب رغم ان ذلك القانون نفسه من وضع السلطة. فرجال السلطة واقرباؤهم والتابعون لهم من الحاشية فوق القانون ولذلك يخرب كل شيء وتضيع العدالة ويسيطر القمع.

الظاهرة الغريبة

ان الحاكم العربي يخاطب الشعب بكلمة؛ يا أبنائي وبناتي. عندنا نعتبر هذه الكلمة اهانة بالغة اذا استعملها مسؤول مهما كان كبيرا. نحن لا نقبل بهذه الصيغة نحن نقول لرئيس الوزراء انت حر في بيتك ولكن خارج البيت نحن لا نسمح لك. نحن نعرف ان مكانة الاب شبه مقدسة في البلدان العربية داخل الأسرة استنادا الى الدين والأعراف والأوضاع الاجتماعية التقليدية ولذلك فالاب

خارج البيت رجل اخر! انني أقدر ان الحاكم يفعل الشيءنفسه مع الشعب يضع نفسه فوق الشعب في مكانة مقدسة، انه فوق النظام وفوق المجتمع ولذلك يستفيدون عاطفيا من لهجة الابوة ليسيطروا على الشعب. الحكام ايضا يرتكبون اخطاء وعلينا ان ننتبه دائما الى اعمالهم. وان نراقبهم بشدة كيلا ينحرفوا. ولذلك نحن نحتاج دائما الى جهاز رقابة فعال وفي البلدان العربية لا توجد الرقابة التي تحقق العدالة الاجتماعية لانهم لا يوضحون ولا يكشفون عن الاشياء المخبوءة.

حاكم كفرد

الفكرة الاساسية تكون على النحو التالي عندنا؛ كل شخص عنده مهمة صغيرة او كبيرة. الحاكم عنده مهمة اكبروعنده قدرة محدودة. والناس يثقون بهذه القدرة ولكن من الطبيعي ان تظهر الحقيقة وان تظهر نقاط الضعف. كل انسان عنده نقاط ضعف نحن لا نلوم من يفشل عندما يبذل كل جهوده على العكس نقدر تلك الجهود ولكننا نغير الفرد الذي يفشل ونحاسبه اذا كان تقصيره سببا للفشل وبعد المحاسبة يستطيع ان يستمر في حياته كاي فرد ا آخر.

طفل في الشارع

أنتقل الى نقطة اخرى. على ان نعود الي السلطة. سأذكر شيئا عن قمع الاطفال والاولاد في البلدان العربية. لا أريد هنا ان أذكر حوادث للاثارة، حتى لو كانت واقعية. على سبيل المثال حوادث الاعتداء الجنسي من قبل الكبار. ولكنني أتناول مسألتي القمع وعدم الشعور بالمسؤولية على المستوى الاجتماعي العام. في فرنسا مثلا لا يمكن ان نقابل اطفالا لوحدهم اي لا يرافقهم الابوان. هذه عناية عالية ومسؤولية عالية مع ان عدم الامن في المجتمع الفرنسي يجبر على هذا الطريق لحماية الاطفال.

منذ عشرين سنة كنت أجلس في بيت العمدة في ريف مصر وكنا نرى الشارع

مباشرة. ولقد شاهدت يومها طفلا يلف خيطا على عنق عصفور صغير ويجره وراءه والعصفور يرفرف على التراب. كان الطفل وكانه يجر حمارا او كلبا! وكان الناس يمرون بجانب الطفل دون ان يقولوا له شيئا! اذن كان المنظر طبيعيا بالنسبة لهم؛ طفل يتسلى بلعبة! لقد فهمت الامروما شابهه على النحو التالي؛ ضعيف تحت سيطرة قوي. والناس يقبلون سلوك المسيطر القوي ويرضخون له. اي يسمح المجتمع ان تسيطر قوة على اخرى اضعف منها. وبالنسبة لي فانني أتساءل؛ اذا سمح المجتمع بهذا المنظر فالى اين سيصل؟

لا بد لي ان أذكر هنا أن الاولاد في ريف الوطن العربي يمارسون هواية جمع افراخ الطيور من اعشائها ليأكلوها مع أسرهم. كما ان الكبار يمارسون هواية اصطياد الطيور بالبنادق والفخاخ والشبك وغيرها. ولقد ظهرت هواية جديدة في المدن العربية وهي اصطياد العصافير النائمة ليلا على أشجار الارصفة، رجل وبندقية وبيل ورصيف واصطياد عصافير شيء غريب.

طفل في التعليم

في أرياف مصر مثلا آمن الناس بالتعليم وارسال ابنائهم الى المدارس لاسباب متعددة على رأسها نجاح تجربة التعليم، ونجاح ابناء الريف المتعلمين في الحصول على وظائف محترمة في المدينة ولكن ما الذي يحصل في المواسم؟ لقد شاهدت مرات عديدة في ريف مصر وغيرها من البلدانالعربية تلاميذ المدارس في الصباح مجموعة تتجه الى المدرسة ومجموعة تتجه الى الحقول!

مرة كنت ازور مدرسة ابتدائية عربية. اصطف التلاميذ بهدوء وصمت في أرتال منتظمة ودخلوا الى قاعات الدرس، لقد مرت خمس دقائق وكأن المدرسة مكان للتأمل او العبادة وفجأة تفجرت الاصوات وجاءت من ابواب الصفوف كلها. أصوات الاطفال يبكون ويصرخون ويتوسلون للمعلمين. كذلك لقد فهمت بدأ الضرب. ما زال الضرب اسلوبا معتمدا في اغلب المدارس العربية. لقد كررت زياراتي للمدارس العربية وغالبا كنت احصل على النتيجة نفسها. هكذا يبدأ

القمع. من سلطة الأب في المنزل الى سلطة المعلم في المدرسة وهكذا يألف الطفل القمع كجزء من وجوده هذا اذا تغافلنا عن قمع الفقر والجوع الذي يطال قسما كبيرا جدا من اطفال الوطن العربي.

حادثة غيرمتوقعة

في متحف عربي على حدود البادية كنت وحيدا أتامل آثار تلك المنطقة الشهيرة. وفجأة ظهر أمامي «شخص» عرفت فيما بعد انه موظف في المتحف نفسه. وبلا مقدمات تكلم معي بالانكليزية همسا. لقد كان يعرض علي ان أشتري سرا بالطبع قطعا أثرية. لم أصدق أذني في البداية ولكنه أكد لي بوضوح انه يستطيع ان يؤمن لي قطعا نادرة، ولم ينس ان يؤكد اننا لن نختلف على السعر. حتى الآن انا لا أستطيع ان أصدق ان موظفا اختاره وطنه ليحرس آثاره ومع ذلك فانه يخون ضميره وشرفه وتاريخه ويبيع آثارا تركها أجداده منذ آلاف السنين!

ولعل القارىء العربي يعرف من الصحافة العالمية فضائح تهريب الآثار العربية الى الخارج وخاصة الى الدول الغربية! شيء لا يصدق!

جهة من العنصرية

أفهم العنصرية على انها سلوك متعال ومتغطرس. العنصرية موجودة بقوة عبر التاريخ ولا حاجة هنا لتكرار ما يعرفه الجميع عن ادعاء بعض الشعوب التفوق على أساس العرق، واختلاف اللون. لقد عانى بنو البشر طويلا من العنصرية. ونحن اليابانيين عشنا تجربة مريرة. لقد مارس العسكريون اليابانيون عنصرية ضد الشعوب المجاورة. وضد الشعب الياباني نفسه. وأنا لا أنفي وجود أشكال من العنصرية عند اليابانيين حتى الآن. من جهتي أعتبر كل سلوك يميز صاحبه نفسه عن الآخرين من فوق هو سلوك عنصري. تأخذ العنصرية اشكالا مختلفة، أمة ضد أخرى او طبقة ضد أخرى او فئة اجتماعية ضد غيرها من الفئات او فرد يضع نفسه فوق الآخرين. وانا اقدر ان العنصرية

ما زالت موجودة في بني البشر في كل مكان. ولكي نتخلص من العنصرية نحتاج الى ثقافة عالية، ووقت طويل لا يعرف مقداره. نحن البشر لا نستطيع الان ان نتخلص من العنصرية علي ما يبدو، ولكننا نستطيع ان نخفضها الي الحدود الدنيا.

العرب كما هو معروف مورست عليهم العنصرية وما زالت حتى وقتنا هذا. والأمثلة أكثر من ان تعد. ومع هذا فقد شعرت عميقا ان العرب يمارسون العنصرية داخل مجتمعاتهم ضد بعضهم بعضا على أكثر من شكل. وسأكتفي بمثال واحد على ذلك ومثالي هو اصحاب السيارات الخاصة. يتفاخر مالك السيارة بسيارته وكانها مجد فريد أحرزه دون غيره من بني البشر. ولذلك يتبارى الاغنياء بشراء أحدث موديلات السيارات وأعلاها ثمنا. وهذا التفاخر الصريح يتحول الى تعال على الآخرين، واضطهاد لهم مع أن ملكية السيارة في البلدان المتقدمة صناعيا ليس امتيازا، ولا يختلف كثيرا عن ملكية دراجة عادية.

في عام ١٩٨٩ كنت في القاهرة للمشاركة في ذكرى مرور مائة سنة على ولادة الكاتب الكبير طه حسين. ومرة كانت توصلني الى الفندق معرفتي صاحبة شقتي. وفي الطريق صدمت عربة يقودها فتى لم يتجاوز العاشرة من عمره. سقط الفتى على الارض وتناثرت البضائع الصغيرة التي كان يبيعها. في حالة كهذه فان أقل ما يمكنه ان يفعله السائق هو ان يطمئن على ضحيته وان ينقلها الى أقرب مستشفى ولكن الذي حصل ان تلك السيدة رشقت الفتى بنظرات احتقار ووصفته بالحيوان المتخلف الغبي وتابعت سيرها وكأن شيئا لم يحدث. بالنسبة لي كنت مصدوما من سلوكها للغاية ولم أكد ان أصدق ما حصل. أنا لم أتوقع منها هذا السلوك اللاانساني الفظ تجاه شاب فقير يسعي لكسب رزقه في ظروف صعبة وعلى عربة خشبية بسيطة. انني أرى سلوكها سلوكا عنصريا تجاه من هم أقل مرتبة في سلم الغنى لانها تملك سيارة!

وأقدر ان المواطن العربي ليس بحاجة الى أمثلة أكثر لانه يعاني يوميا من ازعاج أصحاب السيارات الخاصة بأشكال مختلفة. ومن جهتي فانني أفهم

سلوك الطبيبة وما شابهه على انه شكل من اشكال استيقاظ العنصرية في داخل الفرد الذي لا يهتم بكرامة الاخرين.

الاطفال والتعليم

في البادية السورية عرفت ابن صديقي أبي عبد الله واسمه جاسم. كان في السادسة من عمره عندما قابلته اول مرة طفل هادىء وصامت. يشع من عينيه ذكاء خاص وشرود يشبه شرود المتأمل. كان دائما يراقبني بهدوء ويتحدث معي بالطريقة نفسها. كل شيء في ذلك الطفل كان يوحي بانه سيصبح كاتبا او شاعرا لو كان طفلا في اليابان. بعد عشر سنوات رمى جاسم موهبته كلها واصبح راعيا نموذجيا كما يتوقع منه المجتمع. لقد قابلت فتيات وفتيانا صغارا موهوبين ولكنهم انتهوا الى افراد عاديين لانهم لم يجدوا اي نوع من الرعاية لان المجتمع يحتاج الى قدرة واحدة تناسبه كراع.

المجتمع العربي عامة ليس عنده استعداد ليربي المواهب ويقويها. الامر مختلف عندنا في اليابان لاننا نعتبر الموهبة الفردية قدرة تحقق نجاحا في حياتنا. ولذلك يراقب الوالدان الطفل ويدققان في قدراته في الموسيقى والعلم والرياضة. هذه ظاهرة اجتماعية عامة في اليابان. كل والدين يراقبان يبحثان بعدئذ يقدمان كل امكانياتهما لدعم موهبة الطفل. في مجتمع البدو مستقبل الاطفال واضح؛ الولد يصبح راعيا والبنت عروسا. اما في مجتمع الفلاحين فالامر متروك للمصادفة. ربما كان الوضع افضل قليلا في المدن العربية. ولكن الصورة العامة دون المستوى المطلوب من الشعور بالمسؤولية عن مستقبل الطفل. أتساءل دائما؛ هل الوضع الاقتصادي هو المسؤول؟ في المدرسة الابتدائية اليابانية يوجد نواد لكل أنواع النشاطات؛ الموسيقى الرسم النجارة الخياطة السباحة وكل أنواع الرياضات الخ. وفي كل مدرسة مسبح نظامي وحديقة زراعية صغيرة وفي كل مدرسة مكتبة وقاعات للاطفال باختصار المدرسة مجهزة عمليا لكي يمارس التلميذ اي هواية يرغب فيها وهو يستطيع ان

يجمع بين عضوية عدة نواد كما يحب. فلماذا لا نجد شيئا من هذا تقريبا في المدارس العربية؟

ان الامر يعتمد على المعلم والتلميذ بالدرجة الأولى وليس على الغنى أو الفقر. اقدر ان السبب هو غياب الشعور بالمسؤولية العامة. غياب الشعور النابع من وجدان الفرد بانه مسؤول عن مستقبل كل الوطن. ولذلك نسمع اخبارا محزنة عن اشكال الغش والتلاعب في التدريس والامتحان واختيار الاساتذة وكل ما يتعلق بالعملية التربوية.

وما دمنا في مجال التعليم فان علينا ان نقر بان وضع المعلمين في الدول العربية غير النفطية لا يحسدون عليه. فالمرتبات متواضعة للغاية والعلاوات غائبة والتشجيع غير موجود بالاضافة الى غياب التقدير الاجتماعي لمكانة المعلم وهذا كله على عكس مما هو عندنا في اليابان. فمثلا لا يحق لاحد ان يفصل معلما او مدرسا او استاذا جامعيا من عمله. حتى البرلمان ليس له هذه الصلاحية والمعلم محمي بقوة القانون وقوة تقدير المجتمع ما لم يرتكب جريمة بالمعنى القانوني. نحن نتشدد في اليابان في التعليم الى درجة ارهاق التلميذ احيانا خاصة في المراحل ما قبل الجامعية.

الاطفال والقمع

في العديد من المدن العربية يكثر وجود الباعة الصغار ومعظمهم في سن التعليم الابتدائي كما يكثر عدد ماسحي الأحذية من اولئك الصغار ايضا. وفي الاحياء الشعبية في بعض المدن يتجمع الاولاد على السائحين خاصة يطلبون نقودا! بالنسبة لي اكتشفتحلا للخروج من احراج ذلك المشهد الحزين بفضل استغلال نقاط خوفهم. تحت هذه الحالة كنت اسأل الولد عن اسم ابيه اولا وعن اسم معلمه في المدرسة ثانيا. وعلى الفور كان يختفي من امامي. هذا يعني امرين. اولهما ان الولد يتسول دون معرفة اهله وثانيهما ان الاب والمعلم يمثلان سلطة مخيفة بالنسبة للطفل. ان مشكلة عمل الاطفال وتسول الاطفال وتشرد

الاطفال مشكلة عالمية في البلدان الفقيرة ولكننا لا نجد في اليابان ظواهر من هذا النوع.

ان قمع الطفولة مسؤولية عامة في المجتمع العربي وهذا القمع يتخذ اشكالا مختلفة فعلى سبيل المثال لم أجد في مدينة عربية مرافق عامة خاصة بالاطفال. بالطبع هناك بعض الحدائق المتخصصة للاطفال. ولكن عندنا في اليابان مثلا نحسب حساب الطفل كجزء اساسي من بناء اي حي او مرفق عام. الاطفال في المدن العربية يلعبون علي الارصفة وفي الازقة والشوارع احيانا وهم بذلك يعرضون انفسهم للخطر ويسببون ازعاجا للآخرين ايضا. ان رعاية الطفولة ضعيفة للغاية في البلدان العربية بدءا من الابوين وانتهاء بمؤسسات المجتمع. لقد عرفت في كل مكان زرته من الوطن العربي ان الوالدين يضربان الطفل بصورة شبه يومية وكأن الامر طبيعي. هذه الظاهرة اختفت بصورة شبه كاملة من المجتمعات المتقدمة. فهل يبدأ المجتمع العربي مسيرة نحو الحرية وانهاء القمع من تحرير الطفولة ورعايتها والحرص علي نموها بشكل طبيعي حر؟

الجسد مقموع في البلدان العربية ربما كان الجسد مقموعا في العالم كله ولكن الامور نسبية دائما فعندما نقر بان القمع موجود في مكان ما فان ذلك يعني ضمنا مقارنة مع مكان آخر.

مسؤولية العمل والنظر

العربي بصورة عامة يخاف الله. خلال اقامتي الطويلة في مصر كنت أحتاج احيانا عاملا لتصليح أنابيب الماء او لتصليح شيء ما في البيت وكان اولئك العمال ياخذون مني اضعاف أتعابهم لاني اجنبي ربما ولكنني اهتديت الى طريقة تخفف من جشعهم احيانا فكنت أقول للعامل مثلا؛ ألا تخاف الله؟ انا سأطالبك بالنقود الزائدة التي اخذتها مني يوم القيامة. الجميع كانوا يخافون فعلا ويأخذون أجرهم في حدود ما كانوا يسمونه الحلال. لكي نفهم سلوك الرجل العادي في البلدان العربية. علينا ان ننتبه دائما لمفهومي الحلال والحرام.

عمو محمد كما كنت اسميه دائما، صديق حميم لي رغم فارق السن. لقد أحببته عميقا وكنت أعتمد عليه اثناء اقامتي في القاهرة ولقد كان نبيلا معي الى ابعد حد. كنا نذهب لانجاز امر ما يخصني وفي الطريق كنا نصادف فتيات وسيدات جميلات للغاية. انا كنت انظر بشدة الى وجوه أولئك الجميلات بينما كان عمو محمد يغض بصره ويقول لي بين الجد والدعابة؛ انت ولد غير مؤدب اخفض نظرك ويشرح الامر موضحا؛ النظرة الأولى لك اما النظرة الثانية فعليك، الله يحاسب على النظرة الثانية لان النظرة الثانية حرام. انا أفرق بين غض الطرف وبين رؤية الجمال.

الشاعر العربي الجاهلي عنترة بن شداد يفخر بأنه:

واغض طرفي ان بدت لي جارتي

حتى يواري جارتي مأواها

هذا الموقف نفهمه ونقدره ولكن ان نستر الجميل ان نفرض عليه ان يبقى مخبوءا بغير ارادته فهذا امر آخر. مرة في قرية في ريف مصر اقمت عدة اشهر وحدث ان موظفا من القرية دعاني الى بيته فذهبت. في البيت قابلت والدته العجوز وزوجته الشابة التي يلفت جمالها الانتباه فعلا. طلب مني ذلك الموظف ان التقط بعض الصور لهم وخاصة له ولزوجته. وطلب مني ان يبقى الامر سرا والا يعرف احد في القرية. سيدة جميلة تختبيء في البيت بينما كنت اقابل العديد من الفتيات غير الجميلات او العاديات على الترعة او في الطريق بصورة عادية. في تلك القرية كان العمدة يعمل في حانوت يملكه وكان في ذلك الحانوت شباك خاص لبيع السيدات. المرأة في ذلك المجتمع عورة كلها ما عدا الكفين والوجه والقدمين هكذا يؤكد فقهاء المسلمين جميعا قديما وحديثا (هناك واحد اواثنان لا يقولون بذلك وربما لا يعتبرهم المسلمون فقهاء) اذن على المرأة ان تخبيء جسمها لانه عورة أو لانه فتنة. وفي الريف على المرأة الجميلة ان تختبيء هي ايضا في البيت وكأن الجمال لعنة او ملكية ضيقة ليست للظهور ابدا.

الفن والحرام

الفنانة المعروفة شلبية ابراهيم صديقة عزيزة وانا اكن لها ولزوجها نذير نبعة كل التقدير والمحبة انها من اعز اصدقائي طوال حياتي. مرة قلت لشلبية: ان لوحاتك تصور دائما الجنس المقموع. عندئذ انفجرت وقالت بحدة بالغة: انا لا ارسم موضوعا قذرا مثل الجنس. حتى هذه الفنانة الممتازة تعتبر الجنس قذرا لا يصح ان يدخل موضوعا في لوحاتها. مع ان عين الناقد المتدربة ستكتشف ان لوحاتها - في احد مستوياتها - انفجارات لمخزون جنسي مقموع. ولكنها في وعيها الاجتماعي تقول ان الجنس قذرمع انها تحرر قمع الجنس فى فنها.

البدوى المهذب

مرة سافرت زوجتي معي الى البادية السورية ونزلنا كعادتي في خيمة صديقي أبي عبدالله. وبالطبع استقبلنا بحفاوة بالغة كما يستقبلني دائما. وعندما قدم القهوة لزوجتي أدار وجهه الى جهة اليسار ومد لها الفنجان باليد اليمنى. بعدئذ سألته عن معنى تصرفه، فوضح لي بجدية انه احترم زوجتي ولذلك لم ينظر الى وجهها! هكذا اذن؟!

الملابس والقمع

الملابس لغة كما يقول علم الاجتماع. لغة يعبر فيها كل مجتمع عن منظومة من القيم الاخلاقية والاجتماعية. فهناك لغة ملابس رجال الدين، ورجال الجيش ورجال الشرطة. وهناك لغة ملابس الرجال والنساء ولغة ملابس الفصول والاحتفالات والمناسبات وغيرها الكثير من لغة الملابس. في اليابان ما زال عندنا قيود على الملابس قد يستغرب القارىء العربي ذلك خاصة اذا كان يعرف ان الموضة تضرب الجيل الجديد بقوة فمثلا شعر الياباني دائما اسود لكننا هذه الايام نصادف شبابا بشعر اخضر او احمر او اصفر وهكذا. عندنا قيود صارمة على لباس موظفي الشركات والمؤسسات الحكومية تفترض ارتداء البدلة وربطة

العنق. وفي المآتم ما زال الناس يتقيدون بصرامة باللون الاسود. هذه امثلة على قيود الملابس عندنا. وأعتقد ان فرنسا مثلا سبقتنا في هذا المجال فهم قد تجاوزوا قيود الملابس السوداء في حالة الوفاة وهذا يعني انهم يعتبرون الحزن في القلب ليس في لون الثياب. كما ان الفتاة الفرنسية الجميلة ترتدي ملابس بسيطة وكذلك تظهر جمالها بوضوح. هذه نقطة متقدمة علينا. وغائبة بالكامل عن المجتمع العربي فيما اقدر. بعض الباحثين يذهبون الى ان الدين هو السبب في قيود الملابس في البلدان العربية. اما انا فأريد ان أعتقد بان الدين الاسلامي متسامح أكثر من ذلك ولذلك أميل لان أرجح بان السبب هو بنية المجتمع نفسه ودرجة تطور هذا المجتمع. عندنا في اليابان أوقفنا تدريس مادة الديانة كدين فقط في كل مراحل التعليم وندرس بدلا منها مادة الاخلاق ولكن هذا حدث بعد الحرب العالمية الثانية. نحن نعتقد الدين شكلا من أشكال المدارس الفكرية وليس الانتماء المذهبي عندنا مصدر لاي نوع من انواع الصراع او العدوانية. طبعا الدين موجود في اليابان واحيانا يكون قويا في مجال الطقوس ولكنه لا يتدخل في الملابس على الاطلاق، اعني لا يحدد للناس نوع اللباس ولاشكله ولا طوله وفي هذا تقدم كبير خارج القمع وباتجاه الحرية.

الملابس هي الاخرى مظهر من مظاهر القمع في الوطن العربي شكل من اشكال قمع الجسد. ولكن السجون العربية تبقى الشكل الحاد الصارخ لقمع الجسد. ان السجن بهذا المعنى مؤسسة لتخريب الجسد وتدميره والقضاء عليه تماما. ليس التعذيب الوحشي وحده ما اعنيه وانما حرمان الجسد من الحركة ومن حاجاته الاساسية في معانقة الطبيعة وممارسة الجنس. بعد السجن يأتي العنف بكل اشكاله، ضرب الزوجة مثلا، ضرب الاباء لابنائهم، عدوان الاولاد الاقوياء على الاطفال الصغار. زواج كبار السن من فتيات شابات وهكذا. هنا أريد ان أذكر فكرة عن البدو ولباس البدو. انني أقدر ان ملابس البدوي تنطوي دائما على جانب عملي مرتبط بحياتهم في الصحراء. فالكوفية او العباءة وغيرهما لغة اجتماعية ولكنها لغة عملية تحقق تلاؤما عاليا مع الطبيعة القاسية.

الملابس هناك ليس هدفها الزينة رغم وجود ملابس للاعراس والاعياد وغيرها من الاحتفالات الخاصة وهكذا تبدو ملابس البدو فيما اقدر كانها لغة لا تقمع بل تساعد على اكتساب الحرية، اي ترد قمع الطبيعة وهذا الامر يصح في البادية – الصحراء فقط، ولكن المبدأ نفسه يبقى سليما . إذ يجب ان تكون الملابس عاملا مساعدا على الحرية او نتيجة لها لا ان تكون قمعا للجسد والروح والعقل كما هو الامر في معظم ارجاء الوطن العربي.

أذكر انني كنت ألتقط صورا لمجموعة من رجال بني خالد في البادية السورية.

وأراد أحدهم ان أتصور معهم فأخذ مني الجهاز وحاول ان يصورنا ولكنه رآني من خلال الآلة ألبس نظارات وعندئذ طلب مني ان أخلعها لان البدوي لا يلبس نظارة كما قال وطلب مني ان أتقلد مسدسا لان على الرجل ان يتقلد مسدسا! انها ثقافة مختلفة عن ثقافتنا تنتظر من الرجال جميعا ان يكونوا متشابهين في المسكن واللباس والمظهر وطبعا المعتقدات وبهذا المعنى تصبح هذه الصورة قوة موحدة تزيد من تماسك المجتمع ولكنها بكل اسف ليست ملائمة لمجتمع المستقرين.

فكرة الخلود والحاكم

منذ فجر التاريخ كان سكان حوض شرق البحر الابيض المتوسط مشغولين بفكرة الخلود. المصريون القدامى والبابليون والاشوريون والعرب في شبه الجزيرة العربية يتجلى ذلك الانشغال القوي في الآثار المادية التي تركها اولئك الاوائل، ويتجلى في الكتب الدينية بصورة خاصة. لقد ظهرت فكرة التوحيد في وادي النيل كما تجمع الدراسات جميعا . وفي ذلك المناخ المنهمك في البحث عن الخلود ظهرت المعابد المصرية الكبرى والتحنيط والاهرامات وغيرها من الاعمال التي تحاور المطلق المتعالي عن الزمان والمكان. والاثار الآشورية العملاقة بالاضافة الى آثار من الشواطيء السورية تشير الى العشق الكبير

للخلود. الله في ثقافات هذه الشعوب واحد لا شريك له. في وادي النيل وفي بلاد ما بين النهرين. ونحن هنا نتكلم عن التاريخ الاقرب الذي قضى على فكرة تعدد الآلهة بصورة نهائية تقريبا. ان فكرتي التوحيد ومشكلة الخلود تشكلان احدى المزايا الاساسية المميزة لتاريخ المنطقة الثقافي قبل الديانات السماوية ومعها. وهذه المسألة في احد وجوهها على الاقل تعبر عن الحركة الاجتماعية لتلك الشعوب كما تدل بوضوح على مفهوم الحاكم الفرد المطلق.

في اليابان فكرة "الله واحد" بعيدةعن ادراكنا. في ديانة شينتو وفي الديانة البوذية لا مكان لمفهوم الله الواحد. عندنا في ديانتنا وفي ثقافتنا العامة الهة كثيرة. ورغم ان البلدان التي تعتنق الديانة البوذية عرفت سلطة الفرد الواحد المطلقة الا ان تعدد الآلهة بقي مستمرا في عقائد هذه الشعوب. وبناء على ذلك فان انشغالنا بالخلود مختلف عن انشغال العرب. باعتبار ان العرب ورثوا ثقافات منطقتهم وتوجوها بما أبدعوه بانفسهم وبالدين الاسلامي كدين نهائي وأبدي للبشرية حسب اعتقاد المسلمين. نحن في اليابان على العكس من ذلك نؤمن بوحدة الوجود. ولذلك ليس عندنا مركز للعالم. في الثقافة العربية الاسلامية الانسان هو مركز العالم فلا عجب ان يكون الحاكم مركز الشعب. اي الحاكم مشروع للبقاء الدائم المتعالي. والحاكم المستبد سرعان ما يصبح مفارقا للشعب ولذلك قال بعض الحكام العرب قديما بالوهتهم او قال عنهم الناس. أعترف ان المسألة معقدة وانا لا أدعي الاحاطة بها كما ينبغي ولكننا نعرف ببساطة ان العرب المعاصرين يضيفون صفة الخلود حتى لرؤسائهم مثل الزعيم الخالد زعيمنا الى الابد رئيسنا الى الابد. وهكذا ان هذا الابد المضفى على الحاكم مثير لنا في اليابان ويفوق قدرتنا على التصور واحيانا يفوق قدرتنا علي الفهم.

فكرة "التأبيد" لا تقتصر على رجل السلطة الكبير وانما تشمل قادة الاحزاب التي يفترض انها في المعارضة والاحزاب المعارضة من المفترض ان تحمل مشروعا مناقضا لمشروع السلطة القائمة ومختلفا عنه والا فان المعارضة

تصبح سلطة تنتظر دورها في السيطرة على الحكم استلاما يؤيد المشروع السائد.

فعلى سبيل المثال يتمتع انطون سعادة لدى اتباعه في الحزب السوري القومي الاجتماعي بكل خصائص المقدس الكامل وبالتالي الخالد! ولا يجوز لاعضاء الحزب ان يغيروا او يبدلوا في مبادئه. وأسارع فأقول انني أقدر الجميع وأحترم الجميع ولا أبغي هنا الاساءة لاحد بالمعنى الشخصي ولكني أحاول ان أرى من الخارج الفروق بين السلطة القمعية والمعارضة التي هي بدورها سلطة قمعية فيما أرى ويتجلي قمعها في نفي افكار الآخرين. وفي مصادرة حق الآخرين في التجديد. ان كل حزب يدعي بانه يمثل وحده الحقيقة ويمثل مصالح الشعب هو بشكل ما حزب ديكتاتوري سواء اكان في السلطة او خارجها. وكمثال اخر حزب البعث العربي الاشتراكي اكبر حركة قومية عربية منظمة ولقد استلم السلطة في بلدين عربيين كما هو معروف وهو بدوره ينص دستوره على ان الحزب لا يحق له تغيير اوتعديل او حذف المبادىء الاساسية التي أقرها مؤتمره الاول عام ١٩٤٧ م. والقارىء العربي يعرف ان السيد خالد بكداش بقي رئيسا مطلقا للحزب الشيوعي السوري منذ شبابه حتى وفاته. وبعد رحيله احتلت زوجته منصب زعامة الحزب كما ان ابنه عضو في مكتبه السياسي ولنا ان نفترض انه سيرث السيدة الوالدة بعد عمر طويل ان شاء الله.

انني أريد ان أقول بكلمات مباشرة واضحة؛ ان المعارضة القائمة في البلدان العربية هي في حقيقتها سلطة ضد السلطة او سلطة مضادة تطمح للسيطرة على الحكم دون ان تقدم مشروعا مغايرا لمشروع الحكم المسيطر. ولذلك فالمعارضة في البلدان العربية آمنة. لها مكاسبها ولها مشاركتها المباشرة في الحكم أحيانا. اما المعارضة الحقيقية التي لا نستطيع ان نقابل افرادها فانها في السجون العربية او في المنافي الاضطرارية. فالسلطات العربية تميز بحزم بين المعارضة الآمنة والمعارضة التي تهدد وجودها ولذلك فان الحكومات العربية جميعا لا تتردد في قمع المعارضة الفعالة ولا تتردد في القتل عندما ترى

ذلك ضروريا .

يعرف الجميع ان بعض الانظمة العربية تحظر الاحزاب بكل انواعها والشعار المشهور "من تحزب خان" يطبق عمليا بحزم ليس فى ليبيا وحدها بل في السعودية والسودان وغيرها

كاتب بعيد من اعتبارنا ككاتب

في أوضاع كهذه ماذا ننتظر من الكاتب؟ في أقل تقدير ننتظر ان يكون صاحب الموقف او ان يكون في صف شعبه وان يكون صوتا للحرية ضد القمع بكافة اشكاله. على الشعوب العربية مهمات كبرى لا بد ان تنجزها اذا أرادت ان تتقدم ومن تلك المهمات الكبرى العدالة الاجتماعية والوحدة العربية والنهوض الصناعي وبناء علاقات جديدة داخل المجتمع نفسه ومع العالم الخارجي الى آخر السلسلة لقد عرفنا كتابا اصحاب موقف كما ينتظر منهم وعلى سبيل المثال غسان كنفاني، وبالطبع هنا عشرات الكتاب العرب الذين حققوا في كتاباتهم وحياتهم الشخصية مستوى رفيعا من الشعور بالمسؤولية ومن الموقف الذي لا يهادن القمع ولا ينهزم امامه. ولكن ما الذي حصل؟ وما الذي يحصل الان للكاتب العربي؟ أقدر ان معظم الكتاب العرب قد تعبوا او يئسوا او انهزموا. شيء ما كهذا حصل فيما أقدر وأتمنى من كل قلبي ان أكون مخطئا في تقديري. خلال أربعين سنة من حياتي قابلت عددا كبيرا من الكتاب العرب وعددا اقل من المفكرين العرب. ولقد تعرفت على رسامين من اقطار عربية عدة. ولي اصدقاء حميمون بين اولئك جميعا. ومن هذه التجربة الزمنية الطويلة اكتشفت ان الكتاب النجوم يتكلمون كانهم سلطة. في البداية لم اصدق فهمي ولذلك كنت استمع و أستمع وأستمع ولكن بكل أسف لم أسمع شيئا جوهريا يختلف عن السائد. انني شبعت جدا من كلمة "الديمقراطية" وكل من له علاقة بالكتاب العرب يعرف معنى التخمة من كلمة "الديمقراطية" وهذا الشبع الزائد الزائف يدل بوضوح على غياب الديمقرطية. فمثلا تجلس مع كاتب يتحدث عن الديمقراطية بلا تعب ثلاث ساعات

ولا يعطي مجالا لاحد من الحاضرين بالكلام. عمليا هو يمارس الدكتاتورية او على الاقل سلطة النجم ومع ذلك يشكو من غياب الديمقراطية. أظن ان هذا النوع من الكتاب يشكو من الحاجة لمنصب رفيع في السلطة. كلمة ديمقراطية الان في العواصم العربية "تميمة" يرددها الجميع ويحملها الجميع بمن فيهم رجال السلطة الحاكمة ووسائل الاعلام العربية الرسمية.

أذكر هنا مثالا غريبا على اليابانيين على الاقل. المهرجانات الشعرية الكثيفة التي تقام في البلدان العربية. يتوافد الشعراء النجوم خاصة من كل البلدان وينزلون في افضل الفنادق وياكلون افخر الاطعمة ويشربون أفضل أنواع المشروبات الروحية وغيرها ثم يتقاضون مكافأة تتناسب مع حجم النجم ومكانته الاعلامية. وتلك المهرجانات كلها تحت رعاية السلطة وتمويل منها. هناك ما لا يفهم أبدا في هذه الظاهرة. ان عقولنا في اليابان عاجزة عن فهم معنى ان يمدح الشاعر او الكاتب السلطة او احد افراد السلطة. هذا ليس موجودا عندنا على الاطلاق. نحن نستغرب ظاهرة مديح الحاكم كما نستغرب رفع صوره في اوضاع مختلفة وكأنه نجم سينمائي او مطرب ذائع الصيت. باختصار نحن لا نفهم علاقة الكتاب العرب بحكوماتهم. عندنا ننتظر من الكاتب ان يساعدنا ويعلمنا وان يوضح لنا مستقبلنا. ولا يخطر لنا على بال ان كاتبا قد يمدح الحاكم. فكيف اذا عرفنا انه مدح الرئيس انور السادات رئيس جمهورية مصر العربية ومدح الملك الحسن ملك المملكة المغربية والرئيس حافظ الاسد رئيس الجمهورية العربية السورية والملك حسين ملك المملكة الاردنية الهاشمية والرئيس صدام حسين رئيس جمهورية العراق! نحن لا نفهم كيف يمكن لشاعر كبير ان يمدح اولئك القادة في آن واحد. ربما نفهم انه اعجب باحدهم فمدحه ولكن ان يمدح قادة يختلفون في اساليب قياداتهم الى حد التناقض فانه يعني استعداده لمديح من يدفع له نقودا. وبالطبع هناك عشرات ان لم أقل مئات من أمثال هذا الشاعر هنا يطلع سؤال مرير؛ ما هي العلاقة بين موقف الكاتب والمستوى الفني لابداعه؟ انا لا أستطيع ان أقبل كاتبا يمدح السلطة او كاتبا ليس له موقف واضح صريح من

قضايا الشعب في البلدان العربية.

من اطرف ما كنت اسمعه من الكتاب العرب الشكوى الدائمة من غياب الديمقراطية. واتهام الكاتب لزملائه بالعمالة للسلطة. انهم جميعا تقريبا يتبادلون التهمة نفسها في السر وقليلا في العلن وذلك كله يدل على ان سلوك معظم الكتاب العرب يندرج في مفهوم السلطة خارج الحكم او داخل الحكم. ينتصر الضعف البشري وشهوة الظهور وشهوة المال في وقت يحتاج فيه العرب الى ما يشبه المعجزة لكي يحلوا مشاكلهم القائمة.

اذكر مثالا عمليا آخر على ذلك كله وهو اتحادات الكتاب العرب يكفي ان نعرف اسماء قادة تلك الاتحادات لنعرف مدى تبعيتها للسلطة فاعضاء القيادة هم من حزب السلطة او المتحالفين معها اوذالمقربين اليها. وحتى قيادة الإتحاد العام للادباء العرب فان اختيارها يتم على اسس اقليمية يتفق عليها في الغرف المغلقة وربما في مكاتب الامن او ما شابهها.

عقدة الشرف

قال لي يوسف ادريس مرة؛ في العالم حاليا قوتان مخيفتان تهددان البشرية هما المانية الغربية (قبل توحيد الالمانيتين) واليابان. وعندما سألته عن السبب أجاب؛ لقد حقق هذان البلدان شيئا مهما في مجالات متعددة في ميدان التقدم الصناعي. وكل منهما لديه عقدة قوية. الالمان يعانون من عقدة التفوق. لديهم شعور بانهم مبدعون أكثر من الشعوب الاخرى. اما اليابانيون فعلى النقيض وهم يعانون من عقدة الدونية وأضاف؛ وهاتان العقدتان تدفعان الدولتين للتغلب على العالم. وبالمقارنة بين العقدتين تكون عقدة الشعور بالدونية اشد خطرا وفي النهاية ينتصر اصحاب هذه العقدة ويتفوقون على من يشعر بالتفوق.

أسوق هذه المقدمة لا لاقول بصحتها او خطئها ولكن لأشير الى نوع من العقدة الداخلية او الضغط النفسي الذي قد يعاني منه شعب من الشعوب في فترة زمنية معينة فاليابانيون مثلا يختفي شعورهم بالدونية وعلى عكس ذلك

يتنامي الشعور بالتفوق لدى عامة اليابانيين. وقياسا على ذلك فانني اجازف فاقول؛ ان العرب يعانون من عقدة الشرف. فهم يخافون مما يسمونه العار. وهذا الشعور قديم قدم العربي في شبه الجزيرة العربية. يتخذ وعي الشرف ووعي العار أشكالامختلفة في سلوك العربي. بدءا من المظاهر الخارجية وانتهاء فيما يخص الكرامة نفسها.

الازدواجية؛

منذ عشرين سنة جاء الى اليابان مدرس من مصر الى طوكيو وأقام عندنا سنة، كان لطيفا مرحا مُريحا في علاقاته معنا ولكنه كان في الوقت نفسه لاهيا الى أقصى الحدود ومنغمسا في الملذات انغماسا لا يعرف الارتواء. وكان يعلن صراحة عن مذهبه في اللذة ويبرر ذلك بطريقة مرحة خالية من اي حرج. بعدئذ عاد الى وطنه. وعندما زرت القاهرة دعاني الى منزله في حي شعبي من ضواحي القاهرة. في بيت صديقنا تفاجأت بالتبجيل المضخم الذي يلقاه من زوجته وبنتيه. مع كل كلمة وحركة كانوا يخاطبونه؛ حضرتك. لقد بدا لي الاب الذي يمثل في بيته الاستقامة والاخلاق الصارمة. والحفاظ على كل مظاهر الشرف. وقبيل الغداء ألح علي ان نخرج قليلا من المنزل. كان مضطربا قليلا قبل ان يقترح خروجنا. لقد فهمت لماذا أصر علي ان نتمشى قليلا قبل الطعام فهو يعرف اننا في اليابان نادرا ما نأكل دون ان نشرب شيئا ولذلك ذهبنا الى خمارة وشربنا ثم عدنا الى بيته.

هذا الصديق يكاد يكون في سلوكه هذا صورة عن بطل ثلاثية نجيب محفوظ أحمد عبد الجواد، شخص مزدوج في شخصيتين، واحدة في البيت وامام الاخرين في الحي واخرى في بيوت العالمات حيث الرقص الغناء واللذة الجنسية المحرمة.

شاهدت هنا جهة أخرى من قيمة الازدواجية. كانت زوجة صديقي سمينة بصورة مفرطة. أعرف ذلك فلقد كان الرجال في مصر يحبون السيدة الممتلئة

السمينة ولكن الصورة تغيرت الان والاجيال الشابة تفضل الفتاة النحيفة ولذلك عندما دخلت البنتان الى الجامعة اصطدمتا بالواقع الجديد. فتاتان طيبتان وسمينتان انتقلتا الى عالم يرفض السمنة. ولقد عبرت لي الفتاتان عن رغبتهما في ان تصبحا نحيفتين ولكن كان الامر شبه مستحيل في ذلك البيت لانهم يحافظون على نظام الطعام المليء بالشحوم والدسم والمشويات ونظام القيلولة الطويل. وما لم يتغير النظام نفسه فان البنات سيعانين من مشاكل السمنة اجتماعيا علي الاقل. ومرة اخرى نتذكر ثلاثية نجيب محفوظ. فعمل الخادمة الاساسي هو ان تسمن البنات لان النموذج الجمالي المسيطر كان نموذج السيدة السمينة. ليس صديقي وحده مزدوجا. ان معظم الرجال العرب الذين قابلتهم لهم قيمتان؛ واحدة في البيت واخرى في الحياة العامة. الرجل العربي في البيت يلح على تثمين قيمته ورفعها الى السيطرة والزعامة. اما في الحياة العامة فانه يتصرف وفق قدراته وميزاته ونوع عمله. وهذان الوجهان المتناقضان غالبا ينتج عنهما أشكال لا حصر لها من الرياء والخداع والقمع.

جرح الكرامة؛

في ربيع عام ١٩٩٨ م كان موسم الكمأة استثنائيا في بادية بلاد الشام. فلقد جادت الطبيعة القاسية بكميات من تلك الثمرة النادرة. وخلال اقامتي القصيرة هناك شاركت في البحث عنها لاني عرفتها منذ سنوات بعيدة واحببت طعمها الفريد. بالاضافة الى طعم البعد الاسطوري الذي يضيفه ابراهيم الكوني في رواياته. الحكاية ليست مع الثمرة وانما مع صديقي أبي عبد الله.

ذهب الشاب عبيدة ابن صديقي مع اقربائه في كميون للبحث عن الكمأة في الحمادة علي حدود العراق وغاب ثلاثة ايام. وعندما رجع الابن تحدث الى والده، كان يبدو منفجرا هائجا وكان أبو عبد الله يحاول ان يهدئه. أنا لم أفهم شيئا وبالطبع لم أسأل كنت كمن يشاهد شريطا سينمائيا صامتا او مسرحية عنيفة لا يفهم منها شيئا. بعد ساعتين تقريبا جاء عبد الله الابن الأكبر لصديقي وبدوره

تبادل حديثا مع والده. كان عبد الله هائجا للغاية ولا يسيطر على انفعاله العنيف وصادف ان عمه أبا صياح كان موجودا فحاول ان يهدئه ولكنه فشل وقد قال عبد الله شيئا يعني ان اباه سقط وان كرامته جرحت دون ان يفعل شيئا لاستردادها. الابن ترك كلمة وقحة لوالده والاب انفجر بدوره ووقف الثلاثة. عبد الله خرج من خيمة الاب واتجه الى خيمته والعم رجع مجروحا لان ابن اخيه لم يقدر كلامه. اما ابو عبد الله فقد حاول ان يخرج مسدسه. ام عبد الله قفزت عليه وحاولت ان تمنعه من اطلاق الرصاص على ابنه ولكنها لم تستطع. وعندئذ صرخت لصديقي الحميم محمد الذي كان يرافقني دائما الى البادية وطلبت منه ان يوقف ابا عبد الله. بالطبع أسرع محمد وأمسك بمضيفنا من الخلف وسيطر عليه ومنعه من اطلاق الرصاص على ابنه. واثناء ذلك كله كان عبد الله يتابع مسيره صامتا. ان وجود محمد منع وقوع حادثة دموية مروعة. محمد أفهمني ان احد اقرباء ابي عبد الله قال شيئا لعبيدة اثناء البحث عن الكمأة ولذلك شكا لأبيه ولكن الاب طلب من ابنه ان يتحمل والا يفعل شيئا عنيفا ولكن الشاب ذهب الى اخيه الاكبرعبد الله وروى له ما حدث. يبدو ان الكلام ضرب شرفه هو الاخر فجاء الى خيمة والده مصرا على الانتقام لكرامة الوالد المجروحة. ولذلك طلب عبد الله من والده موقفا واضحا حاسما للحفاظ على اسم البيت. اذن كانت سلسلة متوالية من الانفجارات المتوالية. اولا عبيدة ثم عبد الله ثم ابو صياح الذي كسر ابن اخيه كلمته واخيرا ابو عبد الله. ان وعي الشرف هنا كان الصاعق الذي فجر الموقف وأدى الى سلسلة من النتائج.

بعد ساعتين رجع عبد الله الى خيمة والده وجلس امامه صامتا ويبدو ان شخصا ما اقنعه بان يعود ليعتذر من والده. كنت جالسا أشاهد ما يجري. بعد فترة قدم ابو عبد الله لابنه الشاى والابن قبل الكاس وشربه بصمت. عندما رأيت ذلك شعرت بالاطمئنان وتوقعت ان الحادثة كلها قد انتهت تماما.

في اليوم التالي أقمت وليمة لاصدقائي هناك وذبحت لهم خروفا ودعوت مجموعة من البدو من اصدقائنا أنا وأبي عبد الله. كان ذلك نوعا من التعبير

البسيط عن اعترافي بالجميل الذي أجده عندهم دائما. عندئذ قال لي ابو عبد الله؛ اذهب انت وعبد الله الى خيمة ابي صياح لدعوته الى الطعام. عبد الله قال لي دون اي تفسير؛ اذهب وحدك. فهمت فورا انه لا يستطيع ان يواجه عمه بعد ذلك الحادث. فذهبت وحدي ووجدت ابا صياح وحيدا. في وقت الوليمة، كان يبدو حزينا للغاية. لقد كان يشعر انه فقد الهيبة والاحترام. عادة ابو صياح يتحدث كثيرا (كالاستاذ وفيق) ولكنه كان يبدو شخصا آخر. اولا اعتذر عن الطعام وشرب الشاي فقط وثانيا بقي صامتا طوال الوقت. وثالثا كان مطرقا حتى نهاية الوليمة. عبد الله كان يقدم واجبات الضيافة ويساعد والده في كل شيء. ولكنني شعرت وفهمت ان شيئا كبيرا قد انكسر بين عبد الله وعمه. ومن الصعب ان يلتئم قبل مرور زمن طويل.

حادثة محزنة

في تلك الزيارة عرفت ايضا ان شيئا محزنا للغاية قد حدث. ابنة صديقي ابي عبد الله تزوجت ابن عمها محمد ولكن خلافا حادا نشب بين ابي عبد الله واخيه الصغير، ابي محمد. هناك اسباب كثيرة منها الخلاف على مياه بئر مشتركة ونتيجة للخلاف ترك ابو محمد البئر لاخيه وأرجع ابنة اخيه الى بيتها. ذلك الخلاف لم يكسر العلاقة بين الاخوين فقط ولكنه كسر العلاقة بين الاسرتين وكسر الزواج. فعندما قابلت محمدا لم يتحدث معي طويلا فرحا كعادته لانني ضيف في بيت عمه. ومما يحز في النفس وما لا أنساه ابدا هو ان ابنة ابي عبد الله بدا عليها الهرم وهي لم تتجاوز الثانية والعشرين. لقد كبرت في سنتين اكثر من عشرين سنة. ابو عبد الله لم يقل لي شيئا عن ذلك كله. ولذلك استفسرت من ابي صياح فاخبرني بقصة الخلاف. وعرفت ان ابا محمد حفر بئرا خاصة به. هكذا يضرب الشعور بالشرف كل الحواجز الاجتماعية وينسف اقدس العلاقات الانسانية.

- يوم مات الزعيم - صورة الزعيم

كنت في القاهرة يوم مات الرئيس جمال عبد الناصر.

لقد رأيت الحزن الكبير الصاعق الذي سيطر على الناس ولكنني رأيت ايضا الحيرة والفوضى تسيطر على الناس. كان الناس كأنهم سكارى وما هم بسكارى وكانهم فقدوا العماد مثل المركب الذي تحطم والركاب لا يعرفون الى اين يمضي بهم ما بقي بين ايديهم. لقد فهمت الوزن الكبير الذي يُعطى للزعيم في مصر. الناس يحتاجون الى زعيم او على الاقل يبدو على المصريين انهم يحتاجون الى زعيم. وقد فهمت فيما بعد ان موت جمال عبد الناصر أحدث شيئا مشابها لما حدث في مصر في البلدان العربية الاخرى. خرج الناس الى الشوارع يلبسون السواد ويبكون يندبون ويهتفون للرئيس الراحل. بالطبع كان جمال عبد الناصر ذا شعبية كبيرة في الوطن العربي ولذلك أحدث رحيله فراغا كبيرا لدى محبييه وأتباعه ولكن ذلك كله يطرح السؤال التالي: من هو الزعيم الحقيقي؟ كيف يجب ان يكون الزعيم؟ من هو الزعيم الجدير بالثقة؟ لماذا يحتاجون زعيما الى هذه الدرجة؟ بالمقارنة، ربما نقدر ان نقول اننا - نحن اليابانيين- نحاول أن نعتمد على شيء آخر. عندنا في اليابان صورة الزعيم فقيرة جدا. لقد فقدنا الصورة الحقيقية للزعيم. اننا نرى كيف يتبارى قادة الاحزاب والشخصيات المهمة لكسب أكثرية الاصوات. الزعيم الحقيقي - في تصوري - لا يلهث وراء السلطة، السلطة نفسها تأتي اليه يفرضها عليه وعي المسؤولية والشعور العميق بالواجب. ولكي أتجنب تقديم صورة لزعيم جديد بقيادة شعبه من تاريخ اليابان و تاريخ البلدان العربية فانني أسمح لنفسي بان أشير الى صورة الزعيم كما يقدمها الادب الرفيع واختار صورة الزعيم من رباعية الروائي العربي الليبي ابراهيم الكوني «الكسوف» وأقدم للقارىء صورة "غوما" كزعيم توضحت فيه صفات رجل القيادة في ظروف خاصة قاسية.

اختلاف في النظرة الى الدين

عرفت الدكتور علي حسن السمني معلما للغة العربية في جامعة طوكيو للدراسات الاجنبية، ثم زميلا وصديقا. كان دائما مسلما متدينا مستقيما ينفذ ما جاء في القرآن الكريم في طعامه وعلاقاته وحياته الخاصة والعامة.

مرة ذهبنا معا الى كيوتو وزرنا معبد "توجي". هذا المعبد مشهور جدا في اليابان ويقصده زوار كثيرون من اليابان ومن الاجانب وهو معبد قديم مشهور "بالباغودا" ذات الطبقات الخمس الجميلة للغاية. عندما رأى الدكتور السمني ذلك الجمال الاخاذ عبر عن إعجابه قائلا: ما شاء الله! الله بنى هذا البناء. قلت له: يا دكتور! هذا البناء شيده أجدادنا اليابانيون. ولكنه نفى ذلك بشدة وقال لي بيقين قاطع: كل شيء جميل او عظيم هو من خلق الله. وهكذا استسلمت وصمت!

أقام ذلك الصديق أكثر من عشر سنوات في اليابان. كان يستيقظ في البرد الشديد في الشتاء قبل الفجر ليؤدي الصلاة. وكان يصلي في اي مكان يدركه فيه موعد الصلاة، في مكتبه، في الحديقة، في القطار. باختصار كان مسلما مستقيما يتقيد بتعاليم الاسلام كما يفهمها. يصوم ويصلي ويمتنع عن أكل ما حرمه دينه، كما انه حج الى بيت الله الحرام، لقد أعطانا نحن اليابانيين صورة واضحة ملموسة عن المسلم المتدين.

مرة كنت أقرأ رواية "بين القصرين" لنجيب محفوظ، وعندما رآني سألني: لماذا تقرأ روايات تافهة؟ لماذا لا تقرأ القرآن الكريم؟ كل شيء مهم للبشر موجود في القرآن. إقرأ القرآن لأن كل الكتب التي كتبها البشر تافهة. طبعا استمعت اليه باحترام فأنا أدين له بأشياء كثيرة كصديق طيب مستقيم ولكنني سألت وأسأل: الى اين يؤدي التدين بالمسلم العادي او غير العادي؟ المسلم الذي يمارس حياة التدين كل حياته الى اين يصل؟ لقد تابعت حياة ذلك الصديق – رحمه الله – أكثر من عشرين سنة وكان في مكانه لا يتقدم. لقد بقيت حياته وافكاره ثابتة لا تتغير ولا تتقدم. هل هي صورة مسلم فرد؟ ام صورة عامة للمسلم المتدين؟

عندنا في اليابان يختلف البوذيون المتدينون عن هذه الصورة. الكاهن البوذي

يتقدم وقد يصل الي مكان بعيد عال. نحن نعطي الدين مكانا خاصا. ونتوقع شيئا فريدا من تجربة التدين الشخصي الطويلة. الدكتور السمني لعب دور الشيخ المسلم عندنا، ولكنه بقي في مكانه يقيم الفرائض الدينية حرفيا بلا مساءلة. يقرأ القرآن كل شهر مرة ويحفظه عن ظهر قلب والسؤال مرة أخرى الى اين وصل بعد كل تلك الجهود الكبيرة؟ أظن ان الموضوع معقد للغاية، ولذلك أكتفي بهذه الاشارة السريعة.

عن الثقة

تاريخ الثقة طويل في اليابان. ولكننا بعد الحرب فقدناها بصورة مؤقتة وبسبب الفوضى الاجتماعية والفقر وغياب الحاجات الاساسية تصرف الناس بدون وعي الثقة. بعد ذلك رجعنا الى الحالة السابقة واعتبرنا الثقة رباطا يشد المجتمع كله. حتى التجار يرون ان الثقة مهمة ويقولون انهم اذا فقدوا الثقة فقدوا تجارتهم كلها. هذا يعني ان التجار يثق بعضهم ببعض وبالطبع يثقون بالربح.

أذكر مثالا بسيطا من تجربتي الشخصية: في امتحانات آخر السنة في جامعتنا انا أوزع الاوراق واسئلة الامتحان على الطلاب. وأتركهم بلا مراقب وأعود الى مكتبي. وفي نهاية حصة الامتحان أعود لأجمع اجابات الطلاب. انا أريد ان أجعل الطلاب يتصرفون بثقة، واذا صادف ان غش أحدهم فان زملاءه يعتبرونه خائنا للثقة. الرأي السائد ضمنيا عندنا في اليابان بالنسبة للفرد هو: أنا مضمون بهذه الثقة. الثقة ضمانة وكمثال أقدر ان الصحافة في اليابان تشتغل على أساس الثقة. وأهم مسألة في الصحافة عندنا أنها تقدم حقائق. واذا حدث احتمال للكذب او الكلام بلا ثقة فان الصحافة تتعرض لحالة خطيرة. ولا بد من توضيح ذلك. نحن اليابانيون نراقب ذلك بصمت ولكن بشدة.

في البلدان العربية هناك ظواهر كثيرة تدل على غياب الثقة عن العلاقات الاجتماعية. وعلى سبيل المثال فقد شاهدت كثيرا من الآباء يستخدمون القوة مع أبنائهم لكي ينفذوا شيئا نموذجيا مرغوبا. مرة أهديت أبا عبد الله منظارا عاديا،

حرك الفضول اولاده لاستخدام الجهاز، وقرأت في عيونهم حب الاستطلاع ولكن صديقي قال لابنائه: لا تمسوا المنظار. إذا واحد منكم مد يده عليه فسأقطعها. بعد ذلك التهديد لم يقترب أحد منهم من الجهاز. أمر واحد نفذ الاب ما يريد بشكل كامل.

كان عندنا أيضا في عصر ميجي (عصر النهضة) الاب المخيف المهاب، وبالتدريج تحولت تلك الصورة وأصبحت العلاقة بين الآباء والابناء تقوم على الثقة. ان غياب الثقة في الأسرة يؤدي الى حدوث جرائم كبيرة. ولقد شاهدنا الكثير من تلك الجرائم .

ليس السلوك على اساس من الثقة سهلا ولكن علينا ان ندرك ذلك ولا بد – هنا في اليابان – ان نعتمد على الثقة بين الوالدين واولادهما .

وكمثال مرة أقمت مع أربعة باحثين يابانيين في قرية "الطيبة" على أطراف البادية السورية. وفي أحد الايام لم يجد أحد زملائي جهاز التسجيل (المسجلة) وبعض الحاجيات الصغيرة. عندئذ قلت لصاحب البيت الذي كنا نسكن فيه اننا فقدنا بعض الاغراض. ولكن رب الاسرة قال لي: هذا مستحيل. هذه سرقة لا تحدث في بيتي. أولادي لا يسرقون وربما كانوا أولاد أسرة أخرى. واذا اكتشفت ان أحد أولادي هو الذي سرقها سأقطع يده. فقلت له مازحا لكي أخفف من انفعاله: نحن لا نريد يد ابنك المقطوعة. نحن نريد المسجلة! أعترف اننا خفنا فعلا أنا وزملائي. لقد أخذنا الامر على محمل الجد وصدقنا ان الاب سيقطع يد ولده. على أي حال، اكتشفنا الجهاز في قاع البئر ولم نسأل عن توضيح الامر، ولم نتابع البحث لنعرف من فعل ذلك.

ثقة في المجتمع

وكمثال آخر. الناشرون عندنا ليسوا تجارا. انهم يشتغلون في ميدان الثقافة. هكذا يعتبرون انفسهم. لقد سمعت من كتاب عرب ان الناشرين يستغلون الكتّاب. ويسرقون حقوقهم! لنا من الصعب ان ندرك ذلك، أو نفهمه. والجميع يعرفون

ظاهرة تصوير الكتب، ونشرها دون إذن من المؤلف او دار النشر صاحبة الامتياز. هذا لا يحصل عندنا على الاطلاق. كثيرا ما تقوم العلاقات في البلدان العربية على الصلات الفردية او الخدمة الخاصة، او أسوأ وسيلة وهي الرشوة. تغيب الثقة فيحل محلها المنفعة المتبادلة ونحن نسمع دائما تعابير من نوع: عشان خاطرك! وهكذا تحدث اشياء غير قانونية. ويتبادل الذين يخالفون القوانين الحماية والمكاسب.

في أواخر شهر أيلول عام ١٩٩٩ حدث عندنا في اليابان تسرب اشعاع من محطة توليد الكهرباء بالطاقة النووية. حدث ذلك في معمل محافظة إيباراغي. ذلك الحادث سبب صدمة شديدة لكل اليابان. ولقد بذلت جهود كبيرة لتوضيح كل شيء للناس. ذهب خبراء وعلماء الى مكان الحادث ووضحوا اسبابه عبر التلفزيون والصحافة تلك مرحلة أولى، اما المرحلة الثانية فكانت تحديد المسؤولية عن الحادث ولماذا حدث ثم كيف نمنع وقوع حادثة مماثلة؟ وما زلنا نتابع كل المراحل هذه لسببين: ١- توضيح المسؤولية وتحديدها ٢- لكي نمنع تكرار الخطأ. ولكي نستعيد الثقة المشتركة بين الحكومة وسكان المنطقة. ان وعي الثقة يحدد السلوك ويوجهه، وكأن الثقة جهاز يضبط المجتمع ويحافظ عليه سليما.

اذن في اليابان يحدث احيانا ان تخرق الثقة واذا حدث ذلك فان المجتمع كله يراقب ويتابع ويحكم بنفسه. واقدر على ضوء تجربتي المتواضعة في البلدان العربية ان مفهوم الشرف والعار يحل محل مفهوم الثقة في مجالات واسعة من الحياة الاجتماعية العربية.

أذكر مثالا آخر من اليابان. العمال يثقون بشركاتهم التي يعملون بها ثقة كبيرة ويعملون فيها ويدافعون عنها وكأنها شركاتهم الخاصة. والعاملون (الادارة والموظفون والعمال) يصدقون الادارة ويطيعونها. هناك عقد قائم من الثقة المستمرة - وليس مكتوبا - هو ان الشركة ستحافظ على العاملين فيها وستشاركهم أرباحها ولن تتخلى عنهم. هذه الثقة ميزة فريدة في ميدان العمل

في اليابان. ولكن مع الاسف بدأت بعض الشركات تخرب هذه العلاقة التي تميز الاقتصاد الياباني. فنحن نسمع في السنوات الاخيرة عن تسريح عمال او تقليل عدد الوظائف للعاملين الجدد. او اغلاق بعض فروع الشركات بسبب أزمات مالية. اليابانيون جميعا يراقبون باهتمام شديد ما يحدث، وأقدر اننا نتمسك بقوة في تثبيت الثقة كرباط اجتماعي يضمن لنا حياتنا في الحاضر والمستقبل.

إنني أسأل الاسئلة التالية البسيطة عن المجتمعات العربية:

– هل يثق الاباء بابنائهم؟ وهل تثق الزوجة بزوجها؟ وهل يثق الفرد باقربائه وجيرانه وأبناء مجتمعه؟

– هل يثق المواطن باحزابه السياسية؟ ام هل يثق بحكامه؟

– هل يثق المواطن العربي بالصحافة والقضاء والقوانين العامة؟

– هل يثق العاملون باداراتهم وأرباب عملهم؟

– هل يثق الفلاح بالتاجر الذي يشتري محصوله؟ وهل يثق المشتري بالبائع؟

– الى آخر هذه السلسلة عن الاسئلة الموجعة الجارحة. ان الثقة لا تستورد ولكنها تنبت في النفوس وتنمو برعاية المجتمع كله. فمتى تعتمد المجتمعات العربية على رباط الثقة؟

اختلاف في أخلاق الضيافة

منذ نحو ثلاثين سنة قمت بزيارة "حضرموت" مع خمسة شباب يابانيين وكان يرافقنا موظف حكومي. ولقد استخدمنا في تلك الرحلة سيارتين. واجهنا أشياء كثيرة جديدة علينا، وعلي عاداتنا ولقد عانيت في تلك الرحلة معاناة مربكة لا أستطيع ان أنساها حتى الان. أثناء سفرنا في النهار كنا نصادف أشخاصا يمشون وعندما يرون السيارتين يؤشرون لنا ان نأخذهم في طريقنا. عندئذ كنا نستشير مرافقنا الموظف الحكومي وكان يشير علينا دائما: يجب ان ناخذهم معنا .لم يكن معنا محلات للجلوس ولذلك كان اولئك المسافرون يتعلقون بالسيارة من الخلف او يجلسون فوقها. كنا كل يوم ننقل معنا من ٤ الى ٥

اشخاص وغالبا ما يبقون معنا أثناء الليل. كنت أعد الطعام مع زملائي وضيوفنا يجلسون غير بعيد عنا يتفرجون علينا. وبعد الانتهاء من تحضير الطعام كنا نستشير مرافقنا فيما اذا كان علينا ان ندعوهم ليشاركونا عشاءنا وكان يجيب دائما: يجب ان يشاركونا العشاء! لقد حدث الامر نفسه طوال ايام سفرنا. البدو لا يشعرون بأي حرج في هذا الوضع. نحن عندنا طعام وهم جائعون في الصحراء اذا لهم علينا حق، ولا بد ان نقدم لهم هذا الحق.

تلك التجربة في حينها كانت شديدة علينا لاننا جئنا من ثقافة أخرى ومن مجتمع يتصرف فيه الضيف والمضيف بطريقة مختلفة. لقد قرأت كثيرا عن صدمة الياباني عندما يسافر خارج اليابان ويواجه أشكالا لا يعرفها في أخلاق الضيافة. بالنسبة لي تعلمت - فيما بعد - ان المضيف يقدم كثيرا مما عنده والضيف يقبل واحيانا يطلب من مضيفه بلا تردد. في اليابان الضيف لا يطلب واذا حدث وطلب فانه يفعل ذلك بخجل، ان دور المضيف او الضيف ليس واضحا في اليابان. الامر الأكيد هو ان هناك اختلافا كبيرا في أخلاق الضيافة بين اليابان والبلدان العربية. مثلا نحن في رحلتنا حملنا معنا من الطعام الياباني وغيره ما يكفينا نحن ومرافقنا الموظف الحكومي خلال ايام السفر ولذلك فان إطعام خمسة اشخاص كل يوم لم يكن في حسابنا ولم نتوقع حدوث أمر كهذا ابدا، ليس لاننا بخلاء ولكن بسبب القيم التي تربينا عليها في مجتمعنا الياباني. بالنسبة لي أجد ضيافة العرب فريدة ممتازة. لقد تمتعت كثيرا بالضيافة عند أصدقائي في البلدان العربية وعند أشخاص كنت أقابلهم احيانا للمرة الاولى ولذلك أريد ان أذكر مثالا عن كرم لا يحدث في اليابان.

كرم غير متوقع

في اخر أيام إقامتي في القاهرة كانت الفنانة شلبية ابراهيم زوجة الفنان نذير نبعة تعد أعمالها لاقامة معرض فني فردي. وكان علي ان أسافر قبل موعد افتتاح المعرض. عندئذ أحضرت السيدة شلبية اللوحات التي ستعرضها لكي نراها.

وقالت لزوجتي: يمكن ان تختاري اللوحة التي تعجبك هدية مني. كنا مسرورين انا وزوجتي للغاية بهذا العرض الفريد ولكن زوجتي فقدت السيطرة على نفسها واختارت لوحة ثانية: أريد هذه ايضا! ساد الصمت بين أصدقائنا الحاضرين جميعا وكانت شلبية في حالة اضطراب أمام طلب زوجتي. عندئذ تدخل نذير وقال لزوجته: أعطها اللوحة أنت تستطيعين ان ترسمي مرات كثيرة في المستقبل.

هذا لا يحدث في اليابان. الفنان الياباني لا يهدي لوحة سيعرضها في معرض فردي قبل العرض، هذا اولا وثانيا موقف نذير وكلامه ايضا.

عن الضيافة

وأذكر في هذه المناسبة انني زرته مرة الى بيته في دمشق وأراني مجموعة من اللوحات التي وضعها خصيصا لشاعر قال عنه انه طبيب اسنان، وذلك الشاعر أراد ان يصمم له نذير لوحات ليأتي الديوان في أبهى حلة. قال لي نذير ببساطة: اختر واحدة - كذكرى - هدية. ونحن لا نستطيع ان نتوقع تصرفا مثل هذا في اليابان. انني دائما أشعر بالدهشة والاعجاب تجاه كرم من هذا النوع.

الضيف في البلدان العربية يأتي في اي وقت والمضيف لا يستطيع ان يرفض استقبال الضيف. لقد عرفت نذير نبعة منذ نحو ثلاثين سنة وما زلت أذكر حوادث كثيرة عنه من هذا النوع. أنا أيضا مندهش من تصرف الضيوف. هم يأتون الى بيته في اي وقت حتى في اوقات الراحة او العمل! أظن انه ضحّى هو وزوجته بوقت كثير. بيته دائما مفتوح للناس. بيت العربي (الكريم) دائما مفتوح للضيوف. ان هذا الشكل من العلاقة بين الزائر والمكان المزار لا يحدث في اليابان الا في المعبد. باب المعبد الحقيقي عندنا مفتوح لكل شخص يرغب في زيارته او الدخول اليه. دينيا هذا مطلوب من المعبد، واجب على المعبد وانا أشبه بيت نذير نبعة وما يشبهه من البيوت العربية بالمعبد الياباني.

القضية الفلسطينية

خروج "الايتوس" من القضية الفلسطينية

قبل ست عشرة سنة أقمت في سورية عشرة شهور متتالية. وفي دمشق طلبت من أحد الأصدقاء ان يأخذني الى مخيم للاجئين الفلسطينيين فقادني الى مخيم اليرموك. وهناك زرنا بيتا فلسطينيا على اطراف المخيم. لاحظت ان البيت مسقوف بمواد خفيفة ربما من التوتيا او ما شابه. استغربت الامر وسألت صاحب البيت الخمسيني عن السبب فقال لي "هذا بيت مؤقت. بيتي الحقيقي هناك في فلسطين. نحن نسكن هنا بصورة مؤقتة وسنعود الى ديارنا عاجلا ام آجلا. واذا وضعنا سقفا بشكل كامل فهذا يعني اننا نتنازل عن العودة. اننا نحتفظ بادراكنا ان هذا المكان مخيم. كان عند الرجل شيء نفيس ليريني اياه. غاب قليلا في غرفة داخلية وعاد ومعه مفتاح بيته في فلسطين! وقال وهو يعرضه امامي: كلنا نحتفظ بمفاتيح بيوتنا. نحن هنا بصورة مؤقتة.

تلك الحكاية البسيطة مشتركة عند عدد كبير من اللاجئين الفلسطينيين. ولقد قرأت ما يشابهها أكثر من مرة. نحن في اليابان نفهم من مفاتيح البيت معنى العودة للفلسطيني اللاجئ. ونفهم الى اى حدود يتمسك الفلسطيني بوطنه في قلبه وفي اعماق روحه.

"هناك جرائم لا نتحمل مسؤوليتها مباشرة؛ اي لم نشارك فيها، ولكن لا بد ان نتحمل مسؤوليتها" انني اعتقد ان البشر جميعا مسؤولون عن اي جريمة تحدث على كوكبنا، ولذلك فالعالم كله مسؤول عن الجريمة التي ارتكبت بحق الشعب الفلسطيني. المسألة ببساطة شديدة هي أن مجموعة بشرية جاءت من خارج فلسطين، واستوطنت بقوة السلاح، ثم شردت شعبا، واغتصبت ارضه وثقافته وتاريخه. فالقضية الفلسطينية خطأ ارتكبه العالم، وما زال يتفرج عليه دون أن يعمل جديا على حله. ان الموقف من القضية الفلسطينية مرتبط بمسألتين

جوهريتين هما؛ العدالة ووعي المسؤولية. ومن فكرة العدالة ووعي المسؤولية كونت موقفي من القضية الفلسطينية وغيرها من القضايا في العالم الثالث، والعالم المتقدم صناعيا. الامر بالنسبة لي ليس معاداة لاحد او تعصبا لاحد لانني لست ضد حق اليهود في الحياة الكريمة، فهذا جق البشر جميعا ولكن دون ان يكون هذا الحق على حساب شعب آخر. ان حل مشكلة ما، او تجاوز جريمة ما لا يكون بإيجاد مشكلة جديدة، او ارتكاب جريمة جديدة الجريمة امتحان كبير لعدالة البشر، ولوعيهم لمسؤوليتهم، وامتحان للكرامة والشرف والضمير في وقت واحد.

لقاء مع غسان كنفاني

نحن في اليابان عرفنا القضية الفلسطينية عن طريق الغرب، بعدئذ فهمنا ان علينا أن نبحث عن الحقائق بانفسنا. من المعلوم أن ضوضاء كبيرة أحاطت بالقضية الفلسطينية، وبالنسبة لي كان غسان كنفاني هو الصوت الاقوى والاصفى الذي صدقته وسط تلك الضوضاء. شخصيا كنت في حيرة – ومثلي الكثير من اليابانيين – وبالمصادفة قرأت انتاج غسان كنفاني القصصي. بعد تلك القراءة شعرت انني اقف امام القضية الفلسطينية. لقد قابلت كثيرا من اقدار الفلسطينيين (بعد قراءة الآثار الكاملة ربما قابلت اكثر من مائة حالة من اقدار الفلسطينيين) لقد قابلت عدة أنواع من طرائق حياتهم عن طريق تجربة الخطأ والصواب. لقد قابلت فلسطينيين لم يتوقعهم غسان كنفاني. فلسطينيون في عصر الضياع لا يعرفون الى اين يتجهون، يتراجعون وينهزمون في مسيرتهم. لقد تابع غسان كنفاني المصائر السلبية والإيجابية للشخصية الفلسطينية. بعد رحيل غسان كنفاني صدرت أعماله الكاملة خلال فترة قصيرة. انه أمر مدهش بالنسبة لنا، فعندنا في اليابان يستغرق الامر سنة على اسرع تقدير، وعموما يستغرق سنتين او اكثر. أقدر أن السبب يعود الى أن الفلسطينيين الباقين أحسوا بعد ان تركهم غسان كنفاني أنهم بحاجة ماسة لانتاجه لكي يمشوا خطوة

أخرى الى الامام، ولذلك ظهرت اعماله الكاملة فورا بعد رحيله. لقد شعرت بالروابط القوية بين الشعب والكاتب الذي ينتمي الى الشعب: الروابط القوية بين الفلسطينيين وكاتبهم غسان كنفاني.

في مرحلة الضياع، مرحلة تجارب الخطأ والصواب تنبأ غسان كنفاني بمستقبل ما سيحقق شعبه فى المستقبل. واستمر يتابع تجارب أبناء شعبه كلها وأصواتهم كلهاثمن المؤكد ان غسان كنفاني وجد نفسه امام حالات صعبة حيث تعرض مواطنوه لتجارب مريرة تفوق قدرة تخيلنا، ولكنه بالرغم من ذلك حاول ان يعبر عن كل ما حدث لشعبه، معتمدا على تنبؤ ما سيحققه هذا الشعب في المستقبل. غسان كنفاني كان يحترم الشعب احتراما كبيرا، ويثق به ولذلك كان يقول ان الشعب اكبر منه وأعلى منه ونحن نستطيع ان نرى احترامه للشعب في اشكال متعددة:

اولا: قطع غسان كنفاني الصلة مع أسرته. كان أبوه محاميا ينتمي الى الطبقة المتوسطة. هذه الطبقة في معيارنا عالية في المجتمع ولذلك أدخل غسان الى المدرسة التبشيرية الفرنسية، ولذلك كان عليه فيما بعد أن يتعلم اللغة العربية بدءا من الابجدية. كثير من الفلسطينيين الذين كان عندهم رأسمال، او شهادة علمية نزحوا الى الخارج خاصة الى بلدان الجزيرة العربية، وهناك حصلوا بسهولة على مناصب جيدة. غسان كنفاني وجد تناقضا في موضوع صلته مع أسرته، ومع اللغة. لماذا لا تخدم أسرته الشعب ولماذا لا يعرف اللغة العربية؟ ورغم انه لا يملك المؤهلات فقد حاول ان يربط مصيره بالشعب الفلسطيني، وباقدار هذا الشعب، لاجل ذلك قطع الصلة مع أسرته.

ثانيا؛ الفلسطينيون في قصصه ورواياته؛ قبل ان أتحدث عن المسيرة التي تابعها الشعب الفلسطيني أريد ان أشير الى نقطة مهمة؛ يحدث تغيير الاجيال في اي مجتمع كظاهرة اجتماعية طبيعية، ولكن ما يلفت الانتباه ان هذا التغيير بالنسبة للفلسطينيين جاء بعد ربع قرن على النكبة، وهذه الحالة من التغيير تحمل معنى انقاذ الشعب، اننا نجد مثال ذلك بوضوح في قصة غسان كنفاني "زمن

الاشتباك" مثلا.

لقد تهيأت لنا في اليابان فرصة نشر روايات غسان كنفاني. فترجم صديقي الاستاذ كورودا رواية "رجال في الشمس" وترجمت روايته "عائد الى حيفا وخمس قصص قصيرة" في كتاب واحد، ولقد اخترت تلك الاعمال لانها تبين لنا مسيرة قدر الفلسطينيين:

ا- "ارض البرتقال الحزين" حيث يصف كيف طرد الفلسطينيون وكيف أصبحوا لاجئين.

ب- "كعك على الرصيف" تصور لنا الاولاد الفلسطينيين الذين يشتغلون في شوارع دمشق بعد النكبة.

ج- "قميص مسروق" التي تكشف لنا كيف تكون حياة الخيام. لقد عاش الفلسطينيون خمسا وعشرين سنة تحت الخيام، في الصيف وفي الشتاء وفي اوضاع كهذه لا تستطيع الأسرة ان تعيش حياتها الخاصة بسبب وضع الخيمة نفسها، وبسبب اشتراك اكثر من أسرة أحيانا في خيمة واحدة. ان قصص غسان كنفاني تعرفنا على الكثير من الفلسطينيين الذين فقدوا حياتهم الخاصة.

د- قصة "زمن الاشتباك" تقدم لنا صورة الشعب الفلسطيني وهو يقرر مصيره - اخيرا - بلا تراجع. عندما قرأت هذه القصة شعرت باطمئنان لانني عرفت ان الفلسطينيين اختاروا مصيرهم وحددوا اتجاههم. انها قصة تصف الحياة اليومية ولكن يظهر الجيل الجديد منالفلسطينيين صامدين لا يعرفون التعب أبدا، انهم مختلفون عن الجيل القديم الذي لم يستطع النهوض تحت وطأة الشعور بالهزيمة.

مرة قابلت الناقد المشهور د. إحسان عباس في بيروت، وتحدثت معه عن اعمال غسان، وسألته عن العمل الذي يفضله له من انتاجه كله، وبالمصادفة كان رأينا متطابقا؛ زمن الاشتباك. تلك ذكرى نفيسة بالنسبة لي .

من روايات غسان نفهم يقظة الوعي الفلسطيني، مثلا نجد الفلاحين تحت هذه الظروف الخاصة من الخطر يستيقظ وعيهم باتجاه البندقية. انه يقول انهم

يشمون رائحة الخبز من البارود عندما يطلقون الرصاص. ان الاسلحة هنا ليست للقتل، ولكنها بنادق من اجل العيش في المستقبل.

ذ- يعبر غسان عن يقظة الوعي، وعن هذا الفهم للبندقية في قصته "ابعد من الحدود" انه يقدم هنا مقولته الفذة "الانسان حالة" ان هذا التعبير صحح لي خطأ ارتكبته عندما ترجمت رواية "عائد الى حيفا" ووقتئذ لم اكن افهم - على ما يبدو - المستوى الذي وصل اليه غسان كنفاني في معالجة القضية الفلسطينية.

كان من الصعب علي ان أصل الى مرحلة القضية الفلسطينية و لقد أخطأت في ترجمة "الانسان هو قضية". في اللغة الانكليزية توجد كلمة "cause" في هذه النقطة اللغة اليابانية فقيرة جدا، ونحن نستخدم كلمة "مونداي" لكن في اللغة العربية عدة كلمات نفرق بينها بناء على المعنى الذي نقصده في كل حالة، ولكننا في اليابان نستخدم كلمة واحدة "مونداي" لمعاني متعددة مثل قضية مشكلة، مسألة الخ. كان علي ان أصحح عجز الفهم، عجز اللغة، فغسان كنفاني في روايته الاخيرة "عائد الى حيفا" يكتب بان الانسان هو في النهاية قضية".

عندما قارنت بين عبارتي؛ الانسان حالة، والانسان هو قضية فهمت المعني المقصود وصححت ترجمتي على النحو التالي؛ الانسان هو في النهاية وجود يحقق قضيته.

مع ان غسان قد ربط بين الانسان والقضية بعلاقة المساواة (=) ووحد بينهما في مسيرة القضية الفلسطينية، ويبدو انني لم اكن قد وصلت الى هذا المستوي الرفيع من الفهم عندما ترجمت الرواية. ولقد سألت - وقتئذ - كثيرا في اليابان حول ذلك ولكني لم اجد جوابا لاننا كلنا اليابانيين لم نفهم القضية الفلسطينية فى هذا المستوى ولم نتابع تطورها الى حيث وصل غسان والشعب الفلسطيني. ولكن قصته "ابعد من الحدود" أفهمتني معنى "الانسان حالة." الفلسطيني يقول في هذه القصة؛ إذاً انا حالة وهذا يعني - فيما يعنيه - انه اتخذ قراره بمواجهة حالته التي فرضها عليه العالم. من قبل كان الفلسطيني يهرب من وضعيته . في قصة "أبعد من الحدود" يقول الفلسطيني لنا؛ انتم فرضتم علينا هذه الحالة،

ونحن نقبلها. تلك نقطة البداية في القضية الفلسطينية. لقد أصبح الفلسطيني يعتبر حالته قضية عليه ان يتحمل مسؤوليتها. ان الفلسطينيين عمقوا جوهريا قضيتهم في التاريخ وأدخلوها مرحلة اختيار الطريق في التاريخ نفسه.

ان اعتبار الانسان في النهاية وجود لا بد ان يحقق قضيته خطوة متقدمة في تطور مسيرة الفلسطينيين. وهذا الفهم ينطبق علينا، وعلي الفلسطينيين؛ اي لقد دخلت القضية الفلسطينية في مرحلة تعمق فيها العلاقة مع الاخرين اي هناك موضوع مشترك بيننا جميعا. يقول محمود درويش ان فلسطين ليست حزينة بل هي الحزن نفسه.

كلاهما غسان كنفاني ومحمود درويش يجعل الصفة مكافئة للوجود نفسه وهذا فهم رفيع في مسيرة الفلسطينيين.

عودة الايتوس الفلسطيني؛

بعد عشرين عاما من التشرد استيقظت روح الشعب الفلسطيني وبدأ هذا الشعب يجدد روابطة بالوطن والعالم من حوله. لقد عبر بوضوح عما يريده وبلا لبس؛ العودة الى فلسطين، الى الوطن المغتصب. في رواية "عائد الى حيفا" يقدم لنا غسان كنفاني السيد س المواطن الفلسطيني المشرد. ذلك المواطن عنده ولدان، ترك واحداً منهما في حيفا – تحت ضغط الحروب وسوء التفاهم – وعندما عاد السيد س الى حيفا وجد ابنه شابا، والاهم من ذلك وجده مجندا في الجيش الاسرائيلي.

غسان يبين لنا بوعي وعمق كم العودة معقدة، وكم تفترض من العوامل الجديدة التي لم تكن موجودة، ولا متوقعة. وقبل ان أجيب على سؤال هل العودة ممكنة ام مستحيلة؟

أود ان اتابع ما فعله الفلسطينيون بعد استيقاظ وعيهم.

يقول د. إحسان عباس ان الصفة المهمة في ادب كنفانى هي بناءالروابط الجديدة بالأشياء ومد الجسور مع العالم.

ان كلام احسان عباس يعبر بوضوح عن الموضوع الاكثر عمقا الذي اكتشفه غسان عند الفلسطينيين، الروابط الجديدة ومد الجسور مع العالم. عندما يقترب الفلاح من السلاح تتمتن عقيدته ونجد رابطة جديدة.

يمكننا ان نحدد الروابط الجديدة عند الفلسطينيين على النحو التالي؛

١- روابط الفدائيين مع الامهات.

٢-تجاوب الشعور بين الفدائيين واشجار الوطن.

٣- روابط الانسان مع الارض

٤- روابط الفدائيين مع البندقية.

وفي ذلك كله جدد الفلسطينيون روابطهم بصورة لم تكن موجودة في المجتمع العربي التقليدي. وهم يكتشفون واحدا بعد الآخر صلة لم يعرفوها من قبل كمواطنين عرب.

على سبيل المثال في قصة "أم سعد" يكشف لنا غسان كنفاني عن مشاعر جديدة للفدائي تجاه امه، عن روابط تتجاوز علاقة الرحم التقليدية. أم سعد تحمل الطعام الى سعد ورفاقه الذين يحاصرهم الجنود الاسرائيليون وعندما تنصرف أم سعد عائدة يشعر سعد انه يعرف أمه الحقيقية لاول مرة وانه يحتاج أما بصورةدائمة وأبدا.

في قصة علي زين العابدين "خميس يموت اولا" نجد اللغة المتبادلة بين الفدائي الفلسطيني وأشجار الوطن. كان جنود الاحتلال الاسرائيلي يطاردون خميسا فيندفع في أعماق الغابة والاشجار بدورها تمد ايديها لتغطي الفدائي وتحميه. وعندما اكتشفه الجنود اليهود رشوه بوابل من الرصاص وأصابوه اصابات قاتلة عندئذ شعر خميس ان الاشجار حوله مجروحة ايضا وهمس كلماته الاخيرة قبل ان يموت؛ "انهم يقتلون الاشجار ايضا" لا يسعني وأنا استشهد بهذه القصة الا ان أشير الى موقف نادر في النثر العربي الحديث. كانت الشابة سهيل تحب خميسا كما يحبها عبر ذلك الوقت القصير الضيق، وعندما تصل سهيل اليه، تجد جثته المليئة بالثقوب فتبدأ بعدها "٤،٣،٢،١

وخميس" وهي تضع يدها على الجرح في كل مرة. انها تتلمس بأصابعها جراح حبيبها وكانها أنفس شيء في الدنيا، انه مشهد متفوق في بنائه ومعانيه ومشاعره.

نشر الكاتب الفلسطيني فواز تركي مجموعة دراسات بالانكليزية تحت عنوانه "المحرومون من الميراث the disinheritedd. الكاتب مقيم في الولايات المتحدة الامريكية . لقد قدم الناقد الياباني إتيرو هاريو عرضا موجزا لهذا الكتاب في مجلة "أدب اليابان الجديد". فواز تركي يقدم كتابه الى صديقه الفلسطيني الرسام فلاديمير تماري يقول الكاتب في المقدمة؛ جيلنا الذي طرد الى الغربة كان يراقب غروب الشمس فقط. ولكن عندما كبرنا وتطورنا بدأنا نسأل؛ من منا حقيقة في الغربة نحن ام الوطن؟ وبدأنا نسأل؛ اينا يرجع الى الوطن اولا نحن ام الوطن؟ دعنا نجتمع في مكان واحد ونوحد طاقاتنا الروحية مرة ثانية وليأخذ كل منا دوره ومكانه من الدائرة لكي تكون الرؤيا متكاملة ولكي نشترك جميعا في خلق رؤيا جماعية موحدة "ان هذا التفكير الجديد لدى الفلسطينيين يوضح معنى جديدا للروابط مع الوطن ومعناها ومداها ويوضح ايضا ان موضوع العودة أغنى الحياة الروحية لدى الفلسطينيين ونوعها؛ هل الوطن هو الذي يعود الينا ام العكس؟

انه مستوىً جديداً من التفكير بالوطن.

ما هو الوطن؟ أريد ان أتابع موضوع الطاقة الروحية عند الفلسطينيين، لقد عبر الشعب عنها بالعمل الفدائي وعبرت الثقافة عنها بالدراسة والرواية والشعر والرسم والسينما وغيرها. ولكي أوضح معنى الروابط الجديدة بالوطن عند الفلسطينيين أريد ان أورد بلا تعليق مقتطفات من الشاعر محمود درويش. يقول محمود درويش:

أكون قد تعودت على محاولة البحث وحدى عن شيء. حين ضاع ضيعني. وان مجرد البحث عنه دليل على انني ضائع طالما لم أجد الشيء الذي أضعته.

ما هو الوطن هو هذا الشيء الضائع هو هذه العودة المنتظرة.

ليس وطنى دائما على حق ولكن لا أستطيع ان أمارس حقا حقيقيا الا في وطني.

لا ليس الوطن إنتماء الظل الى الشجرة ولا إنتماء النصل الى الغمد. كلا ليس الوطن علاقة قربى ودم. ليس الوطن دينا ولا الها. الوطن هو الاغتراب.

تفهم للمرة الثانية ما هو الوطن؟ هو الشوق الى الموت من أجل ان تعيد الحق والارض. ليس الوطن أرضا ولكنه الأرض والحق معا .الحق معك والأرض معهم.

فى السجن تعانقك الحرية وفى السجن تمتليء بالوطن أيضا. الصراع هو الإجابة اذا صارعت، انتميت والوطن هو الصراع.

وأخيرا درويش يقول: أنا لا أذهب الى العالم ولكن العالم هو الذى يأتى الي دائما.

أمام هذه التعبيرات القوية، لا بد ان أعترف بان اللغة اليابانية ليس فيها كلمة بمعنى كلمة "الوطن" العربية.

مع المرحلة الثانية من تشريد الشعب الفلسطيني أصبحت القضية الفلسطينية قضية انسانية عامة تهم العالم كله ولذلك فان الاسئلة التي طرحتها هذه القضية كانت مهمة للغاية وكان يجب ان تكون كذلك لكي تدخل الى أعماق الآخرين باختصار لقد اجتازت القضية الفلسطينية الحدود العربية الى العالم كله.

السؤال الآن هل يقع حل هذه القضية على عاتق الفلسطينيين اولا؟ والعرب ثانيا؟ ربما كان ذلك هو الاقرب الى المنطق، ولكن لا بد في هذه الحالة من ان يتوفر تحالف عالمي قوي ومخلص وفعال. في مرحلة العمل الفدائي كان الفلسطيني يتنازل عن حياته بارادته الحرة، كان الجميع على استعداد لان يتنازلوا عن حياتهم من الفلسطينيين والعرب على السواء وكانوا يفعلون ذلك حلقة بعد حلقة لكي يحققوا الحياة التي تستحق اسم الحياة. الفدائيون لا يفكرون بحياتهم الفردية انهم يفكرون بحياة الشعب الذي ينتمون اليه. ولكن الى اين

وصل العمل الفدائي؟ لماذا لم يتابع الطريق نحو تحقيق حلم العودة؟ اولا لكي نفهم القضية الفلسطينية علينا ان نكون أندادا وما لم تحقق الثورة او الحركة المستوى المطلوب من الند فان طريق التحالف يصبح مغلقا تماما.

فلماذا انحرف التحالف الواسع الذي انجزه العمل الفدائي؟ لماذا إتهم الفدائيون بالارهاب؟ في اللغة الانكليزية هناك كلمة radical، واقدر اننا لا نستطيع ان ننقلها الى العربية بكلمة واحدة، مفهوم هذه الكلمة بالانكلزية يتضمن معنين اولهما أساسي وجوهري وثانيهما متطرف، العالم يعتبر الآخر متطرفا عندما يقوم هذا الاخر بعمل دون المستوي المطلوب او المنتظر منه كصاحب قضية عالمية، وكند للاخرين في العالم. الفدائيون أنفسهم كانوا يقدمون أرواحهم خطابا للعالم ولكن العالم بدأيحكم عليهم كارهابيين. إذن الخلل لم يصدر عن الفدائيين لقد جاء من مصدر الآخر ونتيجة لهذا الخلل تراجع اهتمام العالم بالقضية الفلسطينية.

أعتقد في شبه يقين ان المهم بالنسبة لاصحاب القضية هو اولا ما يحققونه في أرواحهم وبالتالي في أفعالهم. عندئذ يأتي العالم اليهم فلماذا لم يات العالم الى القضية الفلسطينية كما فعل مع ظهور العمل الفلسطيني؟ أعترف ان السوال معقد للغاية وانه بؤرة تتقاطع فيها اتجاهات متعددة متناقضة؛ تاريخية ودينية واقتصادية وسياسية وعرقية وجغرافية ايضا ولكن لا بد من مقاربة المشكلة مهما بدت صعبة.

سؤال العودة وحرائق الاسئلة.

حاشية: دخلت القضية الفلسطينية مرحلة جديدة بعد اتفاقية "أوسلو" ولذلك وجدت أن من الافضل الا أتكلم على هذه القضية من الموقع السياسي او الايديولوجي واكتفيت بالكلام على المستوى الثقافي وباختصار شديد.

ماتعلمته من ثقافة البدو

ذكرت منذ البداية انني فقدت اهتمامي بثقافة المدينة وثقافة المستقرين واتجهت الى ثقافة البدو. لقد تعلمت من ثقافة البدو اشياء كثيرة كانت جديدة وفريدة بالنسبة لي لذلك لا بد ان اوضح موقفي قليلا؛ لم اذهب الى الصحراء وادب الصحراء العربية بحثا عن الغرابة بل ذهبت باحثا عن المعنى. ومن البادية حاولت ان أدخل الى ثقافة البداوة بلا أفكار مسبقة جاهزة. انا أعرف كيف صور بعض المستشرقين الغربيين الحياة في البادية، وأعرف ايضا الصورة السطحية العدوانية التي تقدمها السينما العالمية عن العرب، ولذلك كنت حذرا من الاعلانات الدجالة التي يتداولها الناس عن الحياة العربية. لقد عرفت حياة الفلاحين في مصر، وعرفت الحياة في القاهرة لذلك اكتشفت في وقت مبكر مدى التضليل الذي مارسه الاعلام الغربي ضد العرب. ليست حياة البدو بالنسبة لي موضوعا سياحيا ولا ترفا. ان اهتمامي بثقافة المكان الصحراوي هو في صميمه بحث عن الجوهري او بحث عن الحقيقة. نحن غارقون في ثقافة الاستقرار ومنغلقون تجاه الثقافات التي لا تشبه ثقافتنا ولذلك فنحن لا نعرف الآخر معرفة صحيحة هذه الحقيقة أراها في كل مكان في اليابان واوروبا والبلدان العربيةايضا. ان العالم المتقدم صناعيا ينظر بتعال ثقافي الى ثقافات الشعوب المتخلفة صناعيا. وحتى في البلدان العربية – بكل أسف – ينظر بعض المثقفين – ان لم أقل معظمهم – بتعال الى ثقافة البدو. المدينيون عموما يجهلون ما عدا ثقافة الاستقرار. ولذلك كله اقدم هنا بعضا مما تعلمته من البدو لعله يجد من يشاركني فيه ولو من بعيد.

من هم البدو؟

عندما أتكلم عن البدو فانني أبدأ دائما – في عقلي – بالمقارنة مع حياة

اليابانيين وحياة الفلاحين في مصر بصورة خاصة. البدو كما هو شائع، اهل الوبر، اما المستقرون فهم اهل المدر. وحياة البدو تتم في البادية وهذا ما يدعى بداوة، اي ان الفرد يعرض نفسه للطبيعة بلا غطاء! وكما هو معروف يسكن البدوي في الخيمة والخيمة ليست حاجزا بينه وبين الطبيعة. والبدوي ينتقد الفلاحين وسكان المدن ويسخر منهم ويعتبرهم جبناء - يحتمون بالجدران والابواب المقفلة. اي يحتمون بالاشجار والخشب بينما البدوي يحيا بلا حماية سوى شجاعته وصلابته. فهولا يستقر في مكان من جهة وهو يقف امام الطبيعة وجها لوجه بلا حواجز. هاتان النقطتان جوهريتان في حياة البدو. والطبيعة حيث يعيش البدو قاسية للغاية، لذلك هجرها معظم بني البشر لانها غير مناسبة لحياة الانسان المؤمن بالاستقرار والراحة. ولكن البدو اختاروا هذا المكان واصروا على الحياة فيه، وقدموا ويقدمون باستمرار التضحيات المترتبة على هذا الاختيار.

من المعروف ان البدو يهاجرون دائما بحثا عن الماء والعشب. فالعشب مهم جدا لانه مصدر الحياة بالنسبة للبدو. والمهم في ذلك فيما ارى - ان تلك الحياة رسخت عند البدوي الشعور بعدم ضرورة الملكية. ان التنقل الدائم يفرض على الفرد ان يحتفظ بما هو ثمين واساسي لحياته ولذلك فان شعور الملكية ضعيف عند البدو، او فلاقل بعبارة اخرى ان البدو لا يبالون تماما بان يملكوا. يقال ان الحاجة للانتقال موجودة في دم البدو. ولذلك كان لا بد ان يترسخ ذلك كله في حياتهم الروحية لقد حصلوا على روحهم الابداعية الخاصة من خلال تجربة الحياة في المكان الصحراوي.

حياة البدو مكتملة؛

لماذا لا يطور البدو حياتهم؟ لانهم يعتقدون انها مكتملة لا ينقصها شيء واية اضافة ستكون تنازلا او انتقاصا من حياتهم وسأوضح ذلك باختصار شديد.

الطعام عند البدو بسيط للغاية وكانه وسيلة لاستمرار الحياة. فليس فيه اي

مظاهر للترف، اوالاستمتاع او الهدر. والطعام نوعان؛ اليومي العادي والوليمة. فالطعام العادي عبارة عن خبز الصاج، واللبن فقط. العشب لا ياكله الانسان مباشرة انه يتناوله بعد ان يتحول الى لبن. في هذه الحياة البسيطة حكمة عميقة حيث يحقق الانسان كل ما يحتاج اليه. اما وليمة – المنسف فانها لذيذة بشكل يفوق تصور اليابانيين على الاقل.

لقد عرفت ذلك من مشاركة البدو في طعامهم. ومن المهم هنا ان اذكر طريقة البدوي في تناول طعامه؛ انه ياكل بصمت وبسرعة كبيرة وبلا توقف. ومما يجدر الاشارة اليه هو ان مكان تناول الطعام ليس مكانا اجتماعيا للحديث والمسامرة كما هو الامر في المدن اليابانية او العربية. ان الاكل عملية مقدسة للبدوي – فيما اقدر– لانه يضمن استمرار الحياة. المنسف لا يقدم الا في مناسبات؛ قدوم ضيف، او الاحتفال بعيد او مناسبات خاصة. ذلك ان المنسف نفسه يستهلك جزءا من مال المضيف المحدود..

اما بالنسبة للملابس هناك العباءة المشهورة والعملية للغاية في حياة كحياة البدو. في الشتاء يرتدي البدوي الفروة تحت العباءة وكلتاهما تحمي الانسان من الموت عندما يضطر لان ينام في عراء الصحراء حتى عندما يكون البرد في أعلى درجاته. ذلك اللباس العملي البسيط ينطوي علي ثقافة روحية عميقة وعلى رضا داخلي لا يضاهى.

يقال الخيمة بيت كبير والعباءة بيت صغير. في الشتاء يسكن البدوي خيمة مصنوعة من الوبر وفي الصيف يسكن في خيمة مصنوعة من القطن. وتلك الخيمة الشتوية تحمي البدوي من المطر والهواء بشكل كامل وعلاوة على ذلك فان شكلها البسيط جميل ومرتب ولا يحتاج الى اية زخرفة او زينة وأخمن ان جمال الخيمة يكمن في الجانب العملي منها وفي البساطة الرائعة ايضاً.

الحياة البدوية نمطية، ولذلك تنجز وتتم على نحو بسيط وعملي ومتشابه. فالناس جميعا يرتدون الملابس نفسها ويأكلون الطعام نفسه ويسكنون الخيام ولا وجود حتى لشخص واحد يتصرف بصورة تخالف السلوك العام للبدو.

تلك الحياة البسيطة في الطعام والسكن واللباس يعتبرها البدو حياة كاملة مكتملة لا تحتاج لان يغيروا منها قيد شعرة. من المدهش للمراقب المتمدين ان البدوي لا يطلب الادوات التي توفر له الراحة، ففي العادة نعتبر الناس الذين لا يحاولون البحث عن التقدم والتطور في اساليب حياتهم، نعتبرهم كسالى او متخلفين، اي ننعتهم بصفات سلبية ولكن الذي يحدث احيانا ان الناس يبحثون عن الاشياء بلا حدود واولئك الذين يلهثون وراء الحاجات الاستهلاكية يفقدون القدرة على رؤية المعنى الحقيقي والفعال للاشياء نفسها، ولذلك لا يقنع ذلك النوع بما يملكون رغم ضخامته. وعندما نراقب ذلك بعناية لا بد ان نتساءل: لقد أحاط الانسان نفسه بالوفرة اكثر مما هو ضروري واكثر مما ينبغي، الا يعني ذلك ان الانسان يبتعد عن فهم جوهر العلاقة مع الاشياء؟ ان حياة البدو تنبهنا نحن الغارقين في الحياة الاستهلاكية وتفتح عيوننا على ضرورة مراجعة حياتنا وعلى ضرورة النظر بعقل ناقد متسائل في اساليب العيش التي تسيطر على مجتمعاتنا. أسارع فأقول: لقد أضاف البدو في استعمالهم أدوات هي من خارج الحياة البدوية. وبصورة خاصة البندقية والسيارة. البندقية تحل مكان السيف والرمح والسيارة تغني عن الجمل. هل اختارهما البدو كاداتين عمليتين للحفاظ على الحياة؟ ربما كانت المسألة أبعد من مظهرها البسيط. ولكنني لا أريد ان أتكلم كمورخ او كانثروبولوجي. انني اتحدث عن الثقافة كمنظومة قيم متكاملة، وهذا بدوره يقودني الى الحديث عن الشخصية البدوية.

الشخصية البدوية:

كتب الباحث الكبير جمال حمدان في كتابه الرائع "شخصية مصر" البدوي يختلف عن المستتر وراء الجدران والابواب. فالبدوي يواجه الطبيعة مباشرة ويتصل بها بلا انقطاع. من هذه المواجهة وهذا الاتصال تكونت شخصيته الفريدة. لقد استيقظ احساس البدوي. كان لا بد ان يكون احساس البدوي صلبا وقويا. بالاضافة الى الاحساس القوي، احتاج البدوي الى الصبر. ولكن الصبر

الذي يحتاجه هو غير الذي نعرفه نحن المستقرين. انه صبر يتجاوز حود صبرنا وقدرتنا، صبر تجاه الطبيعة وهو مع ذلك – غير منطقي. من تجربتي المتواضعة في الحياة مع البدو عرفت انني – انا الذي تربيت في حضارة الاستقرار– لا أملك قوة الصبر مثل البدو وكمثال بسيط للغاية فانا لا أستطيع ان أجلس في الخيمة نهارا وأنتظر غروب الشمس كي تبرد الارض بعد ساعات ويهب النسيم المنعش ولكن البدو يستطيعون. ان مثالا بسيطا كهذا يقودنا على الفور الى الثقافة والى الصناعة بصورة خاصة فالصناعة قدمت لنا منتجات تحمينا من الطبيعة ومنتجات تبعد عنا الاشياء المزعجة ولذلك عندما نتكلم عن الاحساس في اليابان مثلا فاننا نتحدث عن رقة الاحساس ولكن ظروف المكان الصحراوي تدمر رقة الاحساس هذه عند الانسان.

في الجزء الاول من خماسية "مدن الملح" يقدم لنا عبد الرحمن منيف شخصية فريدة هي متعب الهزال الذي يمثل البدوي النموذجي؛ متعب الهزال يتمتع بصبر رائع ولكن يتوسل الى الله لكي يعطيه اكثر. عندئذ يستطيع ان يحصل على مكان حيث يتحمل الحياة وحيدا بعيدا عن تدخل الاخرين.

كما يختلف مفهوم الصبر عند البدو عن مفهومنا فان مفهوم الخير ايضا يختلف. فالخير عند البدو يعني المطر. فالمطر هو الامنية القصوى للبدو لانه يعيد وفرة الاعشاب. نحن نفهم ان يعتمد البشر على ارادة الله فيما يخص المطر ولكن لماذا يطلب البشر من الله ان يمنحهم مزيدا من الصبر؟ هذه النقطة بالذات مختلفة جدا عن تفكيرنا نحن البوذيين او الشنتويين في اليابان. فالمسلمون بهذا المعنى يطلبون من الله الصبر لكي يحققوا أقصى نتائج الجهد، بهذه الطريقة يمكننا ان نفهم الافكار الاسلامية التي تختلف عن افكارنا في اليابان على سبيل المثال.

هناك مسألتان مهمتان لمن يعيش في الصحراء. الأولى هي الصبر، والثانية هي الحيلة. الحيلة مهمة للغاية في ظروف حياة كهذه. والحيلة هنا معناها الترتيب والتدبير والتطبيق. مرة اخرى ساضرب مثالا بسيطا للغاية؛ البدوي يلبس العقال

لكي يثبت الكوفية على رأسه، ولكنه يستخدمه في ظروف تفرض عليه لاغراض اخرى، فالبدوي قد يربط الحبل بالعقال، وقد يستخدمه حبلا طويلا لرفع الماء من البئر حين لا يجد حبلا والحياة بالنسبة للبدوي هي ان يتدبر القليل الذي يتوفر له لمواجهة مشاكله الطارئة، اما نحن اليابانيين فعلى العكس من ذلك نجد الكثير من المؤسسات الخاصة التي تستخدم خبراء ليقدموا لنا "الحيلة" عندما نحتاج بدلا من ان نتدبرها بانفسنا.

ما تعلمت من البدو

الذين يضطرون، او يختارون العيش في ظروف جغرافية حيث تكون الموارد المتوفرة قليلة، وحيث يفتقدون حاجات كثيرة، اولئك لا بد ان يختاروا اساليب حياة تناسب مع ظروفهم تلك. وعلى العكس من ذلك فان المستقرين يبحثون دائما عن بدائل جديدة وهم يبحثون حقيقة عن الترف. لقد أكد عديد من المفكرين والكتاب العرب على ان البدو يقنعون بالحاجات الاساسية الضرورية، ونحن نعرف جميعا نظرية "ابن خلدون" في دورة حياة الدولة، ونعرف آراءه العميقة في البداوة.

في اعمال ابراهيم الكوني نجد صورا واقعية متنوعة عن شظف الحياة في الصحراء. فعندما يستمر المحل (الجفاف بضع سنوات فان الاغنام – على سبيل المثال – تأكل مرة ثانية البذور التي طرحتها في سنوات سابقة عندما كانت الاعشاب متوفرة، وفي مثال اخر يقدمه الكوني نرى صحراويا يشوي حذاءه ويأكله وحادثة كهذه ليست نادرة في الصحراء خاصة في سنوات المحل. والامر من ذلك ان سيدات من الطوارق في قمة الجوع يجمعن روث الغنم ويغسلنه وياخذن الحبوب غير المهضومة لكي يعددنها من جديد ليأكلها البشر! هكذا تهدد الصحراء ساكنها بالجوع النهائي. ولكن الانسان تحت ضغط الحاجة القاتلة يكتشف المعنى الجوهري للبضائع والمعنى الحقيقي للبقاء، يكتشف قيمة فنجان ماء او قطعة خبز للحفاظ على الحياة يوما آخر. انهم بدو وليسوا مستقرين

ليملكوا دائما فائضا يحتفظون به. ومن السخرية ان الذين يملكون ما يزيد عن حاجاتهم يبحثون عن الفائض اكثر واكثر، ويتركون مسافة بينهم وبين الآخرين الذي ينافسونهم في تكديس الثروات. وهكذا تصبح الروابط اضعف فاضعف وينخفض حجم الصلات الانسانية فيما بينهم. ولكن البدوي في حالة الفاقة القصوى يقترب من المعنى الجوهري للاشياء دون ان يضر نفسه، ودون ان يفقد روابطه بالآخرين مثل المستقرين.

المستقرون يبحثون عن الكمية، والبدو يبحثون عن الكيفية. البدوي يسأل كيف؟ والمستقر يسأل كم؟ وبناء على طبيعة السؤال والاهتمام تختلف الاهداف والغايات.

في القرآن الكريم تنص الآية "وجعلنا من الماء كل شيء حي"، اي كل شيء فيه حياة يولد من الماء، والبدو هم اكثر من يدرك هذه الحقيقة ادراكا حقيقيا عميقا. ورغم شظف العيش، وشح الماء فان البدوي يقدم الضيافة لمن يحتاج، اي انه يرحب باقتراب الاخرين منه على العكس من المستقر الذي يبعد نفسه عن الاخرين والبدوي يهمه جدا ويرضيه ان يصفه الاخرون بالكرم. فالكرم بهذا المعنى دعوة مفتوحة للعلاقات الصحيحة مع الاخر، وترحيب صار بالتواصل فيه الاخر، وبهذا المعنى ليس أنانيا على العكس من المستقر الذي يحصر استعمال ثروته بنفسه فقط، وهو لذلك يبعد عنه الاخرين.

عندما نسأل البدوي؛ ماذا تفعل عندما تفقد كل شيء؟ فانه يقدم جوابا صريحا واضحا؛ أعتمد على الصبر. نحن نجد مفهوم الكرامة عن العرب بعامة، ولكننا نراه في اشكال متعددة وعملية عند البدوي، نراه في هموم الشرف. واخلاق البدوي وفي الضيافة والفخر وحب اظهار الذات وإرادة اظهار الشجاعة وفي تجنب العزلة وغيرها من مظاهر الاخلاق البدوية، لذلك ليس عند البدوي اسرار ليكتمها، ويخفيها عن البدو الاخرين فكل شيء معروف من قبل الجميع وأكاد أجزم ان البدو ليس عندهم اهتمام جدي بالخصوصية السرية.

استطرد قليلا وأضيف من تجربتي في البادية السورية. في العلاقة مع الاخر

يبدو الكرم أكثر اهمية وتصبح الضيافة دعوة مفتوحة للتواصل. منذ عشر سنوات، انا اعرف ابا عبد الله من بني خالد، ولقد اكتشفت عبر هذه المعاشرة الطويلة ان البدو لا يختارون ضيوفهم مثلنا نحن المستقرين. البدوي يستقبل الجميع بلا تمييز، اي انهم يقدمون الضيافة من اجل الضيافة ليحققوا في الممارسة روح الضيافة. لقد وجدت في كلمة "الكرم" معنين؛ العطاء والنبل. فالكريم نبيل ايضا. لكي يكون البدوي كريما فان عليه ان يتصرف تلقائيا، من الصعب على البدوي ان يمنع نفسه عن ممارسة الكرم. وفهمت ايضا الكرم نقيض البخل. في اليابان نستخدم كلمة البخل بين الاصدقاء بصورة عادية وأحيانا ايجابية، اي بمعنى اقتصادي تحديدا، ولا نحملها معنى سلبيا، اما عند البدو فان البخل ليس فيه اي معنى ايجابي على الاطلاق.

لقد اكتشفت ان لدى البدوي ميولا لكي يواجه قضايا أكبر منه. فعلى سبيل المثال، الفلاحون في مصر يحافظون على حياتهم. ولا يضحون بانفسهم الا في حالات شديدة الخصوصية وهم يثقون انهم اذا حافظوا على حياتهم فانهم سيحصلون على افضل النتائج. لقد ادهشني اكتشافي ان البدوي يتحدي ما هو فوق قدرته ويعرض حياته للخطر ويضحي في سبيل مايعتقد انه المثل الأعلى بكلمات اخرى البدوي لا يصر على حماية حياته عندما يواجه خطرا والسبب في ذلك شعوره ومبادؤه ولذلك يقدر البدو هذه السلوك تقديرا كبيرا ومن لا يندفع في مواجهة الخطر يحكم عليه البدو بانه جبان ويختم بختم جبان والبدوي يخشي دائما ان ينعت بصفة جبان.

من الطريف اننا نجد احيانا في المدينة بدوا، اعني افرادا اخلاقهم كما اخلاق البدو يتباهون بالشجاعة وينفرون من الجبن كانه طاعون قاتل وبالطبع نجد بين البدو من اخلاقه كاخلاق اهل المدن. اذكر هنا على سبيل الدعابة الغريبة حادثة صغيرة مع الكاتب المغربي المعروف "محمد شكري" انني اقدره واحترمه واحبه وهو يعرف ذلك جيدا. محمد شكري يعيش في طنجة وكان يحب سيدة انكليزية تدير مطعما، وكنا دائما نزور ذلك المطعم وفي كل مرة كان يحمل باقة من الورد

لتلك السيدة دون ان يصرح لها مباشرة بانه يحبها. اذكر كنا نجلس في مقهى باريس نتحدث عن حبه هذا وعلقت مازحا انت لا تصارحها لانك جبان. انتفض محمد شكري كمن أصابه بركان ووقف فجأة وقال لي بغضب ما بعده غضب؛ انا جبان؟ لقد صعقني رد فعله لاني لم أتوقع ان تجرحه الكلمة الى هذا الحد. كان يرتجف كله لقد تغيرت ملامحه وظهر بريق غريب في عينيه عندئذ رحت أوضح له قصدي بهدوء ولطف لقد احتجت نصف ساعة تماما لأقنعه ان الامر بكامله دعابة وبالطبع لم تؤثر تلك الحادثة الصغيرة على صداقتنا. محمد شكري بهذا المعنى الاخلاقي كان بدويا ينفر من صفة جبان.

من تجربتي في البادية عرفت معاناة الضجر والملل. وعرفت مرارة مرور الوقت الفارغ الا من الجلوس والانتظار. البدو عندهم وعي خاص بهم لمجرى الوقت، انه مفهوم مختلف عن الساعة اليوم الاسبوع وهكذا. انهم يعيشون في ديمومة وقتهم الخاص حيث تنمو الاعشاب وترعى الاغنام. عندما يقيم مدني مع البدو وهو يحمل معه وعيه للزمن فانه سيجد نفسه قلقا وسيتضاعف قلقه مع مرور الوقت. البدوي يرشف القهوة او الشاي ويتمتع بالحديث دون ان يشعر مثلنا بالقلق بسبب مرور الوقت البطيء. وتلك الحياة تتكرر برتابة دون اي تغيير يذكر من الخارج. ولكن الغريب في ذلك بالنسبة لي هو ان البدوي يعيش كل يوم كيوم جديد ولكي نفهم هذه النقطة، علينا ان نفهم دور الطبيعة اولا لكي ندرك هذا السر في حياة البدو. نحن المدنيين عندما نزور البادية نحكم عليها من الخارج حسب وجهات نظرنا الخاصة من حيث هل هي مريحة او غير مريحة ولكننا لن نستطيع ان نفهم البدو على هذا الاساس. البدو يعتبرون ارض البادية ضمانا لحياتهم بصورة اساسية ونهائية. نحن نعرف الطبيعة الصحراوية تعرض البدو للعجاج والجفاف والصهيد والبرد القارس. ولكنهم اختاروا البادية بلا اكراه، فلابد ان يكون لديهم شيء خاص يدفعهم ليواجهوا الطبيعة، ويتحدوا ويتحملوا ظروفها في كل الاوقات. ولان البدو يتحدون قسوة الطبيعة باستمرار فانهم لا ينحرفون اخلاقيا بل يحافظون بقوة على قيمهم ومبادئهم. تبدو حياة البدو من

الخارج رتيبة مستقرة ولكن البدوي مستنفر دائما، انه في حالة الحراسة المستمرة كجندي ينتظر المعركة ولكن معركة البدوي الاساسية مع الطبيعة. البدو متوترون في جميع الاحوال ورغم ان حياتهم تستمر اياما بلا اي حوادث ولكنهم روحيا لا يملون من التوتر النفسي، ولا يبحثون عن وسائل للتسلية لقتل الوقت. نحن في المدينة نبحث دائما عن التسلية المؤقتة لنهرب من الضجر، ورغم كل جهودنا فاننا لا نستطيع التخلص من الضجر والملل. في هذه النقطة تتشابه حياتنا مع حياة البدو الرتيبة. فالراحة التي تشكل صفة اساسية لحياة المستقرين تؤدي الى التراخي والكسل ومن التراخي تتولد الحياة الرخوة، ان هذه المسألة ستكون واضحة بالمقارنة مع الحياة البدوية.

المستقر والبدوي مظلومان؛ المستقر سلم نفسه للاخرين لحمايته، ورضي ان يعيش تحت حماية سلطة الشرطة وسلطة الدولة لذلك فهو مظلوم من السلطة ومن قوة السلطة اما البدوي فقد حرر نفسه من السلطة البشرية ولكنه قبل ان تظلمه الطبيعة. فعندما نزور البادية في سنوات المحل نعرف الى اي الدرجات وصلت قوة الطبيعة، ووصل ظلم الطبيعة. وعندما يستمر المحل لسنوات فان البدو يهاجرون واحيانا يترك بعضهم حياة البداوة ويذهب الى المدينة ليواجه نتائج سيئة لانه لا يملك القدرة لكي يتكيف مع حياة الاستقرار. ولكن البدو عموما يتحملون تلك الظروف القاسية ويعون انفسهم روحيا ويتمسكون بعقائدهم اكثرواكثر. ولذلك يقال؛ الصحراء علمت البدو التوحيد. ان قسوة الطبيعة توقظ العقيدة في نفس البدوي. لقد رأيت صديقي ابا عبد الله يصلي الاوقات الخمسة كل يوم بعد سنوات من الجفاف و المحل من ذلك كله فهمت ان الطبيعة يمكن ان تدمر الانسان ماديا ولكنها لا تستطيع ان تحط من اخلاقه! اذا كان بدويا حقيقيا. اذا أردنا ان نصف الصحراء بكلمة واحدة تميزها قلنا؛ المطلق. لذلك البدوي لا يعرف التسوية او الوسطية فلا بد ان يكون متطرفا في تحمله وفي صبره وفي اخلاقه. لا بد ان يختار اما ان يمارس وجوده حتي النهاية او ينسحب نهائيا ولا وسط في الاختيار. البدو يحترمون القوة ولكن القوة هنا هي قوة الله اولا ثم قوة

البدوي نفسه. البدوي يفخربقوته وحياته نفسها هي اعلان عن قوته. وفي الوقت نفسه فان الشعور بالانتماء للعشيرة قوي كما هو معروف. لقد اختفى الغزو من البادية لاسباب كثيرة لست في مجال مناقشتنا، ولقد اختفى القسم الاكبر من مظاهر الفروسية ولكن المواجهة مع الطبيعة ما زالت هي هي.

البدوي في خيمته عليه واجبان دائما؛ استقبال الضيوف بارادته ورد الاعداء. والذي لا يستطيع ان يرد على من يعتدي عليه ويهجم على خيمته يعتبر مبتذلا عند البدو ويفقد صفته كرب أسرة، وصاحب بيت. وبالاضافة الى ذلك لدى البدو مفهوم الدخالة والجوار، اي قبول من يدخل تحت حماية البدوي واستقبال الاخر كجار مسؤول عن جيرته. هنا يكون الاختيار واضحا بارادة صاحب الخيمة. وفي هذه النقطة بالذات نتعلم نحن شيئا مهما وفريدا من ثقافة اخرى مختلفة عن ثقافتنا.

البدو هم مظلومون ولكنهم اختاروا الصحراء، وتحدوا الطبيعة فازدادت قوتهم روحيا وجسميا، الهجرة الدائمة في دمائهم ولكنهم تعلموا من الصحراء كم الانسان صغير وضعيف وتعلموا منها ايضا الاعتقاد بقوة وطاقة فوق قوة البشر. عقائدهم بسيطة نقية ومباشرة. لا يسعون وراء البضائع ولا ينمون رغبتهم في الملكية. فقد علمهم الجفاف ان الملكية قضية فارغة وتعلموا من الطبيعة ايضا الا يلهثواوراء الحاجات. عندهم الماء والعشب والنار ملكية عامة لانها ملك الله، تلك عقيدة منتشرة في البادية والمهم هو حق الاستخدام وليس الملكية ؛ من يستخدم ومتى يستخدم؟ مقتنعون بالحاجات الضرورية ولا يدخرون اشياء كثيرة. وعندما يواجهون الحاجة الملحة يتغلبون عليها بالصبر. يردون العدوان ويستقبلون الضيوف هم خشنون وبريون وانفعاليون. دائما يفكرون بالمثل الأعلى ويستجيبون للجواب ويضحون بانفسهم عندما يدعوهم داعي المثل الأعلى. يقبلون من يطلب الحماية، ويراعون حرمة الجار. يحترمون شجرة النسب ويميزون انفسهم بالانتماد الى انسابهم. وليس وعي الانتماء عندهم مسافة تاريخية، يحتقرون الاعمال اليدوية والحرف العملية كالزراعة مثلا ولكنهم

يقدرون التجارة ويمارسونها في قوافل. لهم كبرياؤهم التي يقدرونها كصفة ايجابية يستجيبون تلقائيا لمحو ما يعتبرونه عارا. وعي الشرف عقيدة عندهم ولكنهم قابلون بحياتهم وبيئتهم ومبادئهم قبولا كاملا مكتملا. انهم البدو ثقافة اخرى فريدة وعالية.

عالم ابراهيم الكوني

مصادفة الالتقاء بقصته "القفص"

منذ عشر سنوات تقريبا كنت ازور مكتبة ابن سينا في باريس، وبالمصادفة اشتريت كتاب "القفص" لابراهيم الكوني وهو مجموعة قصص قصيرة. لقد دفعني اغواء غير واضح لذلك الاختيار. بعد القراءة وجدت نفسي مباشرة في عالم فسيح جديد لم أعرفه من قبل، حيث ينفتح عالم الصحراء ويمتد ليضم مظاهر المكان والانسان والحيوان والبنات والحشرات. والمدهش في ذلك كله ان الكاتب لا يغلب جنسا على آخر في صحرائه. ان الانسان هنا ليس مركز الصحراء، كل المخلوقات من انسان ونبات وحيوان متساوية في قوة حضورها واهميتها بالنسبة للمكان الصحراوي. وبناء على تجربتي البسيطة المتواضعة في البادية السورية فانني لم أتخيل وجود مثل هذا العالم في الصحراء، او على الاقل، لم اجد ذلك العالم في اي مصدر آخر قبل قراءتي لروايات ابراهيم الكوني.

بعد تلك التجربة المثيرة، اتجهت الى انتاج هذا الكاتب وتفرغت تماما لقراءته وتدريسه لطلابي ولترجمته والتعريف به للقارىء الياباني.

ابراهيم الكوني كاتب ليبي ينتمي الى الطوارق، وهو يشغل وظيفة ملحق ثقافي في السفارات الليبية في العالم. ولقد تجاوز انتاجه حتى الان ٣٥ كتابا وكلها روايات وقصص قصيرة عن الصحراء الافريقية وعن الطوارق في تلك الصحراء.

أسارع فأقول: ليس المكان الغريب هو ما يشد وحده في روايات الكوني فهذا الروائي فنان بارع يتقن خطاب اللغة. ويجيد رسم الشخصية المؤثرة ويعرف عميقا كيف يبني رواية معاصرة على أرفع المستويات. انه روائي عملاق فيما أقدر – وأخمن انه واحد من كبار القاصين في الادب العالمي المعاصر.

ما تقدم كله شدني الى ادب هذا الكاتب ولكن علي ان أكرر اعترافي بانني منصرف بكل جهودي الى ثقافة الصحراء. لقد عبرت اكثر من مرة انني فقدت

ثقتي بادب المستقرين ولذلك فتحت لي روايات الكوني فضاء جديدا للدخول في ثقافة اهل الصحراء على نحو عميق ومؤثر.

انني أبغي هنا ان أقدم باختصار شديد نقاطا اساسية وجدتها بعد قراءة أعماله المنشورة كلها ودراستها. بقي ان أقول فكرة اساسية وهي ان الكوني يقدم لنا وجها نادرا فريدا من وجوه الثقافة العربية وبالتالي الشخصية العربية وعلى هذا المستوى من الخطاب الرفيع يستطيع العرب ان يحاوروا ثقافات العالم بامتياز عميق.

المفردات التي يقوم عليها عالم ابراهيم الكوني؛

لكي نفهم الكون الروائي عند هذا الكاتب علينا اولا ان ندرك مفردات اساسية تتجاوز معناها القاموسي لتصبح مفاهيم اولا، وبنيانا من لحم ودم ثانيا، انها المفردات المصطلحات المفاتيح. هذه الكلمات جاءت من بيئة الصحراء ومن ثقافة اهل الصحراء، ومن عاداتهم وحياتهم وكل ما يتصل بوجوههم. اذكر منها هنا اهمها؛ الترفاس، الودان، القبلي، ادبني، المهري، امزاد، تانيت، تاجموست وعلى سبيل ا لمثال اوضح باختصار بعض معالم هذه المصطلحات التي تعبر نسيج روايات ابراهيم الكوني كلها.

فالودان هو كبش الجبل، يتميز بقرنيه الكبيرين، وقدرته على التسلق والتحمل. وجنس الودان اصبح نادرا في الصحراء الليبية وهو على وشك الانقراض. ابراهيم الكوني ياخذ هذا الحيوان النادر ويكتشف فيه الاسطورة، ويحوله في رواياته الى مخزن للاسرار والغيب وحكمة الاجداد. انه يلعب دور الرسول المنبيء المنذر، وهو موجود في لحظة مواجهة الصحراوي لقدره الفاصل. الودان في روايات ابراهيم الكوني اصبح حيوانا مقدسا يجمع بين واقعية حضوره المادي واسطورية معانيه عند اهل الصحراء. لقد توسع ابراهيم الكوني في معاني استمرار هذا الحيوان النادر ورفعه الى مستوى الرمز فالاسطورة.

والترفاس هو الكمأة. وهذه الثمرة تنبت في البوادي والصحاري في فصل

الربيع بعد هطول الامطار وكثرة البروق والرعود. وهناك ثلاثة انواع من الترفاس هي الابيض، الاسود والاحمر. ابراهيم الكوني يرفع هذه الثمرة الى مستوي الاسطورة ويعبئها بالمعاني والدلالات الخارقة للمالوف. فالصحراوي الذي تذوق طعمها ولو مرة واحدة يبقي مشدودا لها مدى حياته. انها في روايات الكوني رمز سري للحياة في الصحراء وهي قوة تجذب سكان الصحراء للبقاء في بيئتهم. انها بالوانها وطعمها بعد الشواء تمثل الروح الموصولة عبر التاريخ بين المكان والانسان. وهكذا تتجاوز الكلمة معناها الواقعي لتغدو فضاء حيا من المادة والاسطورة والحياة الصحراوية.

أدبني؛ مقبرة أجداد الطوارق حسب هيرودوت.

آنهي؛ الكتاب المقدس المفقود الذي لم يكتب ابدا ولكن الطوارق يتوارثونه من جيل الى جيل ومن صدر الى صدر. انه كتاب الحكمة قبل ظهور الديانات.

امزاد؛ اداة موسيقية رئيسة للنساء عند الطوارق. تانيت؛ الهة الحب والخصب عند الطوارق قبل الاسلام عبدها الليبيون القدماء ويرمز لها بشكل المثلث. تاجمست ؛ هي عمامة طبقة نبلاء الطوارق ويكون لونها ازرق نيليا.

حيوانات الصحراء ونباتاتها؛ يرصد ابراهيم الكوني كل تفاصيل الحياة الناطقة والصامتة في الصحراء. ونحن نقرأ في رواياته أسماء كل المخلوقات التي عاشت وتعيش الان في الصحراء الافريقية ويعرفها الطوارق. فهناك المهري والجمل والغزال والغنم والماعز والودان والحمار والكلب والثعلب والثعبان والضب والقنفذ والجراد والعقرب والخنفس. اما النباتات فهناك اشجار النخيل، الرتم والسدر والاكاسيا والاثل وهناك ثمرة الترفاس بالاضافة الى الاعشاب.

لا يتسع المقام هنا لكي نعرض ابداع الكوني في تقديم تلك المخلوقات كرموز واساطير متجاوزا حدودهما الفيزيقية الضيقة ولذلك أكتفي بمثال واحد أقدمه باختصار هو الضب؛ حياة الضب كما يكتبها الكوني تعود الى الزمن الاول حين كان الضب سيد الصحراء ولكن سلطان الظلمات أكلته الغيرة لان مخلوقا من ماء

وطين ينافسه في البهاء وهذا المخلوق هو أقدم جد للطوارق لذلك قرر سلطان الظلمات ان يوقع به فأرسل له السعلاة في هيئة حورية لم تر الصحراء نظيرا لها والنتيجة ان السعلاة قادته الى مخالفة التعاليم المقدسة. أعلم يا ولدي ان الماء مقدس والوادي الذي تراه هو آخر نهر جار على وجه الصحراء الكبرى كلها، ويل لمن تجرأ واغتسل في مائه مزبور في حجارة الاولين ان من يدنس الماء المقدس سيصبح ضبا جزاء له. فهل تريد يا ولدي ان تتحول الى حية او خنفس او ضب؟ اذن جد الطوارق سيد الصحراء وقع في قلب الماء وهو يحاول ان يلحق بالحورية التي رآها تغمزه بعينها من الشاطيء بعد ان اجتازت النهر. وهكذا تحول الى ضب! تزلزلت الصحراء بغضب سلطان الضياء. تلاشى النهر وتصاعدت ابخرة الماء في الغيب. لقد بدأ التحول ووجد نفسه يزحف على يديه وركبتيه. ولكنه بالجحر وحده استطاع ان ينزل هزيمة بالزمن. فهو لا يموت حتى ينزف دما غزيرا، فاذا لم ينزف لن يموت حتي لو قطعته الف قطعة. وكبار السحرة لا يستعملون غير لحمه خاصة في شؤون الحب واستدراج النساء الى العشق. وفي ذلك كله يتحمل البقاء في قبره دهرا ويبقى على قيد الحياة. لانه خالد يجمع حكماء القبيلة على ذلك.

هذه صورة مكثفة للضب كما يقدمه لنا ابراهيم الكوني مخلوقا اسطوريا من ياكل من لحمه يقاوم الزمن. بالصبر والبيات حقق الخلود. ان الضب هنا يذكرنا بمفهوم الخطيئة في الديانات السماوية ولكنه يستقل عنها بسيرته الخاصة وتاريخه الخاص. والضب ككل موجودات الصحراء، يصبح جزءا من نسيج العالم الواقعي الاسطوري في الصحراء الافريقية حسب قصص وروايات ابراهيم الكوني. هنا نجد ونادرا ما نجد في مكان آخر الحيوان وقد تحرر من موقعه الدوني في سلم قيم بني البشر فاصبح هو والمهري وغيرهما في مرتبة عالية من الشعور والسلوك والغايات!

الاسطورة؛

عناصر الاسطورة في أعمال الكوني مكثفة للغاية. بداية نحن نفرق بين الوقائع والاسطورة تفريقا دقيقا. ولا نسمح عادة ان تدخل عناصر الاسطروة في الوقائع لكيلا يختلط الفهم. ولكن ابراهيم الكوني يقدم لنا اساطيرة عبر الوقائع ويقدم الوقائع عبر الاسطورة وكلاهما يشكل نسيجا حيا يصعب ان نفرز عناصره ونحن نتابع متعة القراءة فالكاتب يتجول بيسر من الواقعة الى الاسطورة او العكس. والسؤال المشروع هنا؛ لماذا يحدث ذلك على هذا النحو؟ أقدر ان الكوني يكتشف الاسطورة ويرويها. فاعماله كلها تصور حياة سكان الصحراء. والصحراء الكبرى ممتدة بلا نهاية. والزمن الصحراوي متصل ومستمر الى الابد، وهكذا فان الاحداث التي تقع في الصحراء تتحول بسرعة الى نوع من الاسطورة لدى الاجيال اللاحقة. هذا اولا، وثانيا تسيطر على عالم ابراهيم الكوني حمى البحث في قضيتي الموت الحياة، وفي الصحراء تكتسب الاعمال الحالية قيمتها من علاقتها بالماضي، ودخولها في الاسطورة باتجاه الابد، فالصحراوي لا يهتم بالوقت والمكان على طريقتنا نحن سكان المدن. ولذلك تبدو الوقائع كلها حلقات في اسطورتي الموت الحياة بمعناهما الوجودي العميق. وثالثا يرى الكوني نفسه ان الاسطورة تصبح واقعا عندما نكرر روايتها باستمرار، اي تدخل في سلوك الناس. والكوني يعتقد ان الكاتب يستطيع ان يخلق الاسطورة. فهو عندما يحدثنا عن الوقائع نرى الاسطورة وعندما يروي لنا اسطورة نرى فيها الوقائع. ولذلك ليس المهم بالنسبة لعالمه الروائي ان نقيم الحدود بين عالم الاسطورة وعالم الوقائع، المهم ان نرى دراما الحياة بين قوسي الموت والحياة. ورابعا، ابراهيم الكوني يعتقد ان الجن عنصر تكويني اساسي في الاسطورة وبرأيه مالم تدخل انفاس الجن في الاسطورة فلن تكون على الاطلاق في الصحراء الكبرى ولدى سكان تلك الصحراء.

دراما الحوادث؛

نحن نستطيع ان نرى الحوادث اليومية في حياة الطوارق. ونستطيع ان نفهم مظاهرها الخارجية دون معرفة اسبابها العميقة المخبوءة. وما يفعله ابراهيم الكوني هو شكل من اشكال البركان الذي يكسر القشرة الخارجية فيبرز العوامل الدفينة التي تحرك الطوارق من الاعماق. فالحوادث في هذا المعنى ضرورية لتكشف لنا عن المعنى الجوهري الكامن في ما وراء المظهر. من المعلوم ان ابن خلدون أشار الى مهمة معاني الحوادث غير العادية حتى نفهم الجوهر المدفون في الحياة اليومية .

ولا يتسع المجال هنا لكي نورد امثلة على الحوادث الدرامية التي تكتظ بها اعمال ابراهيم الكوني ولكن دراما الحوادث عند الكوني تشمل جاذبية رائعة ليس لها مثيل.

عقلية الطوارق؛

أعمال الكوني كلها في احد مستوياتها بحث في عقلية الطوارق او كشف عنها . من المعروف ان المراكز المدنية تسيطر عليها سلطة القوانين المكتوبة وسلطة الدولة ولكن كلما ابتعدنا عن المركز تضعف السلطة المدنية وعندما نصل الى الاطراف – البوادي تضمحل تلك السلطة لتحل محلها سلطة الاعراف والتقاليد . سكان الصحراء لهم نظامهم الخاص الذي يحافظ على شكل علاقاتهم وفق قواعدهم الاخلاقية. وتلك الاعراف تكون احيانا في منتهى القسوة ومع ذلك يقبلون بها . والكوني يقدم لنا دائما شخصية زعيم روحي تمثل الاستقامة والسمو القيادة النزيهة لتلك الثقافة وقيمها . وسكان الصحراء يقبلون ذلك الزعيم ويحترمونه ويتمسكون به. وذلك الصنف من الرجال يتحمل صعوبات كثيرة تفوق قدرة الانسان احيانا . نعم في الاطراف يكون الناس فقراء ماليا وتكون انظمتهم الاجتماعية بسيطة وغير مكتملة ولكن الحياة الاخلاقية تكون راسخة وجليلة. ابراهيم الكوني يرصد لنا تلك القيم ويقدم زعيم القبيلة وهو يقود مجتمعه

الصغيرويحافظ على قوته روحيا. ولذلك فمن الضروري لكي نفهم الطوارق – البدو ان نفهم عالمهم الداخلي واشكال تفكيرهم ومنظومة قيمهم العقلية.

الظاهرة الروحية؛

اقدر ان هناك تاريخا في عمق الصمت. انهتاريخ في عمق الظلام. وهذا التاريخ أعطى الظاهرة الروحية وجودا واقعيا ثابتا يوازي الواقع المادي المرئي. في ذلك العالم الثاني يسمع ابراهيم الكوني ما لم نسمع عادة ويرى ما لم نر. انه فيما اقدر يسمع الصوت في السكون ويرى الاشكال في الظلام. ومثال ذلك تصويره البارع العميق لظاهرة الجن في حياة سكان الصحراء ودورها في معتقداتهم وسلوكهم. وما لم نفهم ماذا يعني الجن في الحياة اليومية للطوارق فلن نستطيع ان نفهم روايات الكوني وعالمه الفني الشاسع. وبالطبع لا يتسع المجال هنا لنعرض الى اسطورة الجن كما يقدمها كاتب الصحراء الاول.

الفلسفة والامثال في الصحراء؛

يقول الكوني "لا يوجد في الصحراء اي شيء وفي الوقت نفسه يوجد كل شيء" هذا شكل من اشكال التفلسف او بالادق هذا فهم عميق للصحراء. الناس في الصحراء لا يعرفرن القراءة والكتابة. ولكنهم يستعملون الامثال على نطاق واسع. تلك الامثال التي ورثها الاجداد للابناء وكل جيل يضيف ما تعلمه من تجربته. لا بد لنا ان نقر اولا بان من لا يعرف القراءة والكتابة ليس بالضرورة جاهلا. فالبدو في الخيمة يتأملون حياتهم ويتساءلون عن أسرار الموت والحياة. انهم يبتكرون فلسفتهم الخاصة في الحياة والموت. وذلك التفكير هو فلسفة في ما اقدر. اذن علينا ان نستمع باستمرار الى فلسفة الصحراء فربما كانت فلسفتنا نحن المتمدنين تسير في طريق مسدود!

العادات والتقاليد؛

لا أريد ان أستطرد في موضوع معروف ولكنني أركز هنا على نقطة هامة. من المعروف ان النظام الاجتماعي عند سكان الصحراء ذكوري، ولكن الام تلعب دورا بارزا في تنشئة الابناء، وتقرير مصيرهم. والكوني يركز على ذلك باستمراركما انه يصور لنا عادات الغزو، وتقاليد اعداد الشاي الاخضر واللثام ومكانة الشعر في الامسيات بين العشاق بالاضافة الى تفسير الاحلام والملابس والزواج والطلاق والخرافات والمظاهر الوثنية والاعراس والتقاليد الدينية الاسلامية.

هذه النقاط تكون عالم الكونى وتدعونا الى حياة الطوارق حيث نجد حضارة أخرى مختلفة من حضارتنا.

إشارات من الصحراء في أعمال غير الكوني - تأملات

الصحراء فراغ رمزي وعالم ميثولوجيا، ومكان التجربة الداخلية.

بعد ان يقيم الفرد عشرين عاما في الصحراء فانه يجد نفسه امام خيارين لا ثالث لهما؛ اما رجل مقدس او رجل فارغ هكذا يقال. ويقال ايضا الصحراء هي المكان الذي يواجه فيه الانسان نفسه ويكتشف قيمته دون ان يستطيع ان يهرب من هذه المواجهة. منذ زمن طويل اهتم الغربيون بان يدخلوا قيما مزيفة من الخارج الى الصحراء وكمثال ادخلوا الراحة والضجر الى عالم الصحراء وهاتان القيمتان لا علاقة لهما البتة باخلاق سكان الصحراء. ولذلك يمكننا ان نحكم بان مقابلة كهذه كانت ميتة منذ البداية. الصحراء في جوهرها ليست لطيفة على الاطلاق مع البشر. فالصحراء لا تبالي بالناس. فالفرد الذي ينشأ في جبال خضراء يسقيها مطر غزير اذا زار الصحراء فانه يراها بعينه الخضراء ولذلك ستنتهي زيارته بالصدمة وبالصدمة فقط. نحن نجد مع اعمال روائي الصحراء ابراهيم الكوني تاكيدا مستمرا على ان الحكم على الصحراء بمعيار البشر لا ينفع في فهمها ابدا ويجب علينا دائما ان نحكم عليها بمعيارها؛ معيار الصحراء

نفسها.

أكرر ما ذكرته سابقا باننا اذا أردنا ان نصف الصحراء بصفة واحدة فارقة فاننا نقول؛ "المطلق" والمطلق هنا يعني العزلة المطلقة والحقيقة المطلقة. يقال في الصحراء ان الاغنية ذكرى المستقبل! كيف يكون المستقبل ذكرى؟ والجواب عندما نعني المستقبل كخبرة سابقة عرفناها. وفي هذا المعنى فان الاشياء الجوهرية التي ستحدث في المستقبل خبرناها كتجربة سابقة. وفي هذا المعنى ايضا نقابل معنى مختلفا للزمن فالمعيار في الصحراء يختلف عن معاييرنا في المدينة او المجتمع المستقر. هنا في الصحراء يسقط تقسيم الزمن الى ماض حاضر ومستقبل. ويصبح الزمن امتدادا واتصالا على شكل دائرة حيث تتعايش الاسطورة والواقع، وحيث تزول الحدود بين الاسطورة والواقع . تبدو هذه الفكرة صادمة لنا في نهايات القرن العشرين ولكنها حقيقة معيشة في الصحراء .الصحراء هي الصحراء فقط حيث لا نستطيع ان نسمي اي جزء منها او اي مكان فيها وكانها الوجود الذي لا يحمل اسما. وكانها المكان حيث لا مكان. واذا أدرك فرد ما جزءا من الصحراء فانه لا يترك أثر ادراكه في الصحراء نفسها كما يحدث في أماكن أخرى من المعمورة. وعلى من يدرك الصحراء جيدا الا يترك اي اثر فيها وان ينسحب بهدوء بلا أدنى ضجيج. واذا كان هذا الامر صحيحا فان علينا الا نطلق صفات على الصحراء رغم اننا فعلنا ذلك!

الصحراء تنحت الروح وتدبغ الجلد وتدمر الوعي بالوقت والفراغ. الصحراء واسعة بالتاكيد ولكنها لا تطلب نظرة شاملة كلية يقول تيودول مونو، وهو عالم فرنسي نذر حياته للصحراء، يقول؛ انا اتجول في الصحراء ونظري دائما يتوجه الى اصغر الاشياء وادقها... جمال الصحراء في حركة الظل والضوء.

الصحراء تحب السكينة والحكمة. فالضوضاء و السلوك الاحمق ليسا من الصحراء.

يقال عند البعض في وصف الصحراء؛ سوط السكينة، اي ان السكينة في الصحراء تقود دائما الى سكينة اعمق واعمق وكانها تساط فتسرع في الدخول

الى اعماق السكينة. واذا حاولنا ان نصف سكينة الصحراء بالكلمات، ضاقت العبارة الى اقصى الحدود. لا بد ان نترك اشياء الصحراء حولنا تتحدث بنفسها عن تلك السكينة. الصحراء التي قال عنها ابراهيم الكوني لا يوجد فيها اي شيء في الوقت نفسه يوجد فيها كل شيء، هذه الصحراء تصبح مكان الفلسفة النفاذة، ان تراب الفلسفة في الصحراء هو الصمت. وحيث لا يوجد فيها شيء فانها تمتحن الانسان، وتكشف لنا هل هو مملوك ام لا. فاذا كان الفرد متاكدا بانه غير مملوك فانه سيجد في الصحراء غنى الروح وسيكتشف ان صمت الصحراء عالم للفكر النشيط وعندئذ تصبح الصحراء طبيعة داخلية وليست طبيعة مادية خارجية.

الصحراء هي مكان الوحدة، ولكن الوحدة هذه تختلف جذريا عن مفهوم الوحدة في اليابان حيث المكان يكتظ بالينابيع والخمائل. نحن نحتاج الى قوة الروح لكي نتحمل الوحدة في الصحراء. وربما يكون الضب مناسبا تماما لان يتحدث عن تلك الوحدة في جحره، لانها وحدة مكلفة موجودة في وجود الكائنات نفسها.

قلت وأكرر ان الصحراء مكان العقيدة بامتياز. فمن لم يجد عقيدة في اي مكان فانه يستطيع ان يجدها في الصحراء. في البادية يملأ الله وجود المكان ولذلك فالبدو لا يشكرون المضيف من اجل الماء والنار والاكل لانهم يعتبرونها ملكا لله. ولذلك فانهم يشكرون الله. في عالم البدو يقال دائما؛ اطلب اللبن من الناقة، واطلب الولد من زوجتك ولكن لا يطلب الماء الا من الله.

الطوارق باعتبارهم بدوا

البدو لا يتبعون لاي سلطة سوى سلطة الصحراء نفسها؛ اي سلطة الله. واولئك البدو الذي يقبلون تلك السلطة متحدون مع الكون نفسه. البدو وجود هامشي على تخوم الحياة يجاورون الموت فهم في حالة معركة دائمة للحفاظ على حياتهم. البدو يتنقلون بحثا عن العشب والماء اللذين يضمنان لهم الحرية. وأكرر

ما ذكرت سابقا بان البدو يحررون أنفسهم من كل شيء ما عدا الطبيعة. ورغم ان حياتهم بسيطة الا انهم يعتبرونها مكتملة لا تحتاج الي اي تغيير. اذا اعتبرنا حياة البدو موضة قديمة archaic فاننا لا نستطيع ان نحقق الاصابة. فلنقل انها حياة اصيلة وحقيقية authentic.

لقد تعلمت من تجربتي في البادية ان البدو في حضارتهم يتميزون بابعاد كل ما يؤدي الى الضيق بالحياة، ومن اجل هذا الهدف استمر المستقرون في ابتكار ادوات تبعد عنهم الضيق بالحياة. اما غير المستقرين فانهم لا يحاولون تغيير اساليب حياتهم، وهم يتحملون ضيق الحياة بالصبر. لقد وقف الانسان منذ القديم امام هذا المفترق، وكلاهما المستقر وغير المستقر – مشى في طريقه. غني عن القول ان المستقرين اغلبية ساحقة قوية تسيطر على العالم ولكن الغيوم بدأت تتكاثف امامهم وأكرر مرة ثانية ربما كان اتجاه المستقرين يقود الى نهاية مسدودة. واذا استمر التقدم بنهم لا يعرف الشبع فربما قاد الى كارثة شاملة.

ترى هل نستطيع نحن المستقرين ان نتابع طريقنا الى النهاية دون ان نعترف بفشلنا لاننا سخرنا الطبيعة رغما عنها لرغباتنا واغراضنا؟

البدوي يرى ان البيت مقبرة لمن يريد ان يحيا حياة حقيقية والمقصود بيت المستقر. والبدوي يقول الروح السليم لا يوجد الا تحت الخيمة وهو يميز نفسه باستمرارعن المستقرين ونحن نجد الكثير من الامثلة البدوية التي تسخر بحدة من الفلاحين واهل المدن. وربما كانت تلك السخرية نوعا من تشجيع النفس وحضها على تحمل ذلك النوع من الحياة. المستقرون لا يفهمون حياة البدو على حقيقتها وهم بدورهم يسخرون من البدو. الانسان يبني البيت تلك حقيقة بسيطة ولكن علينا ان نعي ان البيت نفسه يبني الانسان، اي ان المستقر نفسه مقيد بافكاره وفهمه بالحياة في بيت منعزل مقفل. الطوارق يتنقلون دائما والمتنقلون لا بد ان يكونوا اصحاء واقوياء. يقول الطوارق بان الانسان يشرب الماء ليحافظ على حياته. ويستحم بضوء الشمس ليكون قويا ويرفع نظره الى السماء لكي يكون رجلا عظيما. والطوارق يرون ان من يتعود ان يشرب الماء من الاناء لا

يستطيع ان يكون دليلا جيدا في الصحراء. فالعطش قدر الصحراء؛ انا عطشان وما زلت عطشان ودائما عطشان.

وهذا العطش يقودنا الى معنى الصبر. يروي الطوارق الحكاية التالية؛ أوصى رجل عجوز وهو على فراش الموت ابنه فقال؛ يا بني! اذا أردت ان تعيش حياة ناجحة فلا تشرب سوى الماء الطازج ولا تأكل الا الطعام الجيد ولا تركب غير الجمل الأصيل الممتاز. فرد الابن قائلا؛ يا ابي! كيف يستطيع رجل فقير مثلي ان يفعل ما طلبت؟ قال الاب؛ تحمل العطش الى النهاية عندئذ كل ماء يصبح طازجا ولا تأكل قبل ان يعضك الجوع بقسوة عندئذ يصبح كل طعام شهيا، وامش الى جوار الجمل حتى يهدك التعب فاذا ركبت اي جمل سيكون اصيلا ممتازا.

تبدو لنا نحن المستقرين هذه الحكاية ساذجة مضحكة ولكنها في العمق توضح معاني الصبر ومعاناة وشظف الحياة التي يواجهها الطوارق. اذا اردنا ان نصف حياة الطوارق بخط عريض قلنا؛ ان الصبر هو المحك الذي تتجدد به حياتهم كل يوم.

ثقافة الصحراء هي الثقافة البرية. وتلك الثقافة أوجدت المخلوقات التي تعيش في الصحراء؛ الانسان والحيوان النبات والمكان. انني أتساءل هل توجد صفة جوهرية لكل المخلوقات في برية الصحراء؟ وهل نستطيع ان نجد قلب الانسان ايضا؟ نحن خرجنا منذ زمن بعيد من الثقافة البرية واقمنا نظاما أخلاقيا جديدا، ولكنني أخشى ما أخشاه ان يقودنا نظامنا هذا الى نهاية ماساوية. ألا تعلمنا الحيوانات في البرية بان هناك حياة جوهرية مشتركة بين كل المخلوقات؟ على اي حال، اعتقد ان هنالك ما أسميه كرامة الحيوانات التي تعبر بسلوكها عنه، وهذه الكرامة التي اعنيها موجودة في حيوانات البرية. انني هنا أفكر عن مصدر عالم الحياة حيث تصدر المخلوقات كلها.

وعلى سبيل المثال، اننا نجد الانسان البري في الصحراء العربية قبل الاسلام، او ما يسمى عادة الجاهلية. وفي الشعر الجاهلي وحياة العرب وقتئذ

وفي امثالهم وعاداتهم نجد الاتحاد مع الطبيعة ومع مخلوقات الطبيعة والاسلام عندما جاء غير ذلك المجتمع البري فاقام نظاما اخلاقيا جديدا مستقرا، في هذا النظام الجديد اصبح الانسان يواجه الانسان بدلا من الطبيعة ولكننا نسأل رغم تقديرنا العميق للاسلام ؛ ترى الم يفقد العرب المسلمون العلاقة الحميمة مع الطبيعة؟ ان المكان هنا لا يتسع لنتابع اخلاق الصبر في الجاهلية والاسلام معا، والا لاكتشفنا الحدود بين الثقافة البرية. والثقافة المدنية سواء أكانت الثقافة المدنية قائمة على الارض او كان مصدرها السماء.

أريد هنا ان أوكد على ان الثقافة العربية المعاصرة تهتم بهذه المسائل كلها، وخير دليل على ذلك كتابات ابراهيم الكوني الذي يقدم لنا عالم الثقافة البرية حيث يتعايش الانسان والحيوانات والنبات في مكان يشكل فضاء روحيا جميعا وأرى في أعماله طموحا انسانيا كبيرا. هذا الطموح هو الحلم بيوم قادم يتصالح فيه الانسان مع الطبيعة الحية والصامتة .وهذا الحلم لا يخص الثقافة العربية وحدها وانما يخص مستقبل البشر جميعا.

في النهاية أقول، نحن جميعا نعرف بان الحياة البرية تنحسر يوما بعد يوم والبدو انفسهم يتناقصون ويذهبون الى الاستقرار بارادتهم او رغما عنهم، واقول ايضا اذا انقرضت الثقافة الصحراوية البرية فان البشرية كلها ستخسر وجها عظيما من وجوهها الثقافية.

عبد اللطيف اللعبي؛ الكتابة والقمع والحرية

اللعبي كانسان

عندما اقابل شخصية عربية مثل اللعبي أتساءل مستغربا؛ لماذا لم تتحول افكار اولئك الكتاب الى حركة جماعية؟ لماذا نقابل دائما حالات فردية عالمية في الوطن العربي ولا نقابل حركات شعبية على المستوى نفسه؟ اللعبي ككاتب عربي او عالمي يمثل بالنسبة لنا نحن اليابانيين قيمة كبيرة لانه ككاتب تحدى وانخرط في الفعل وقدم ثمنا باهظا وهذا فريد جدا بالنسبة لنا.

هناك كتاب عرب كثيرون ذاقوا مرارة السجن، صحافيون وشعراء ومفكرون وروائيون وهناك عشرات الآلاف من المواطنين العرب عرفوا ارهاب السجون فظاعتها ووحشيتها ولكن اللعبي باعتباره كاتبا قضى اطول فترة عرفها كاتب عربي في السجن كما انه حقق في السجن ما يشبه المعجزة. لقد امتلك حريته واكتشف ذاته بعد مواجهة شجاعة ومريرة. انه فيما ارى حقق في بحثه الطويل اكتشاف جوهر الاشياء واكتشف الحرية بمعناها الانساني الشامل. ان اللعبي بهذا المعنى لا يمثل نفسه كفرد فقط وانما يمثل حركة شعبه في المغرب الاقصى وفي بقية البلدان العربية. ان الكاتب بمقدار ما هو فرد منفرد ومستقل بمقدار ما هو تعبير عن روح شعبه. انه الفرد الذي يحمل في داخله الجماعة وعلى هذا الاساس أختار اللعبي هنا لأقدمه كمثال عربي في البحث عن الحرية وكتجربة حية في النضال ضد القمع. وكطموح حر نفاذ للتوحيد بين السلوك والكلمة.

وهو في ذلك كله يفضح على نحو غير مباشر كل اولئك الكتاب الذين انهزموا ورضخوا او انخرطوا في آليات القمع في البلدان العزبية. ولا حاجة للقول بان المكان لا يتسع لكلام مستفيض عن هذا الكاتب الكبير ولكنني قدمته للقارىء الياباني على نحو مفصل في وقت سابق.

عبد اللطيف اللعبي من مواليد فاس عام ١٩٤٢. اصدر عام ١٩٦٦م مجلة

"انفاس" الادبية ولقد أراد لها ان تجدد الحياة الثقافية في المغرب الاقصي. وفي عام ١٩٧٢ م منعت المجلة من الصدور واعتقل اللعبي باعتباره مسؤولا عن تحريرها وصاحب افكار تضر بامن الدولة. ولقد صدر بحقه حكم بالسجن لمدة عشر سنوات. ولكنه خرج بعد ثمان ونصف بفضل حملة دولية لانقاذه. ولقد انتقل الى باريس منذ عام ١٩٨٠، واقام فيها. كتب اللعبي الشعر والرواية والمسرحية وكتب للاطفال والمقالة ونشر كتبا عديدة. ومن المعروف انه يكتب بصورة رئيسة باللغة الفرنسية ولكنه ترجم الى العربية.

منذ عشر سنوات قررت كتابه "رسائل السجن" على طلاب السنتين الثالثة والرابعة في جامعتنا، ومن خلال هذا الكتاب ولد اهتمامي به كانسان. ومن حسن الحظ فقد استطعت ان اقابله في باريس صيف عام ١٩٨٤ م. التقينا في مقهى قرب محطة مترو الباستيو وبعد ثلاث ساعات من الحديث انتقلنا الى منزله لنتابع ما بدأناه في المقهى. ان ذلك اللقاء عمق صورة اللعبي الانسان الذي عرفته عن قرب في كتابيه؛ رسائل السجن وحرقة الاسئلة.

عندما قابلته طلع امامي بلا لحيته، وبعد التحية سألته على الفور؛ اين لحيتك؟ قال مبتسما؛ مضى وقت طويل وتغير معنى اللحية الذي عرفته به في عصر غيفارا لقد تغير الوقت وتغير المعنى ايضا لذلك لا أريد ان أطلق لحيتي. قلت له؛ لقد أعلنت في نصوصك انك لا تكتب لقراء محددين وانما تكتب للناس جميعا وقلت ايضا؛ ان الكاتب يرسل رسائل لقراء مجهولين وكأنه يضع رسالته في قارورة ويسدها ثم يرميها في البحر ليجدها القارىء، انا التقطت القارورة التي رميتها في البحر وقرأت رسالتك وجئت من وراء البحر ولانني تلقيت رسالتك فانا أزورك اليوم.

استقبل اللعبي تعليقي بصورة طبيعية بلا دهشة ولا استغراب ومن خلال مقابلاتي الكثيرة مع الكتاب العرب عرفت انهم يندهشون عندما يقابلون قارئا آسيويا وكأنهم لا يتوقعون ذلك، اما اللعبي فقد كان استثناء ورغم انني طلعت امامه لاول مرة فقد سار حديثنا طبيعيا، لقد بدأنا بلا حواجز ولا سدود من اللحظة الاولى.

اللعبي في السجن؛

قال لي "الجهة التي سجنتني أرادت ان تقطع صلتي بحياتي، وبالطبيعة من حولي وباصدقائي، كان هدفها ان تدمر احساسي وشعوري ولقد حاولت ذلك عمليا بالتأكيد السجن مكان معركة هدفها تدمير الانسان. ولقد دمر بعضهم فانهزموا وذهبوا ولكن في الوقت نفسه فالسجن مكان معركة تعلم كيف تواجه الواقع الذي انت جزء منه. وتعلم كيف تفهم هذا الواقع بشكل شامل. الخطوة الاولى لتعرف الواقع هي ان تحدد نفسك، من انت؟ في السجن يواجه الانسان نفسه ٢٤ ساعة انه يوضح الصلة مع النفس. السجن مدرسة نفاذة وسليمة بهذا المعنى لان المرء لا يستطيع ان يهرب من نفسه، ولا يستطيع ان يكذب علي نفسه. نحن عادة نمثل انفسنا ولا نواجهها بشكل حاسم ولذلك قد تنتهي حياتنا دون ان نعرف نحن. وقال من الضروري ان يراقب الانسان نفسه لكي يعرف الواقع. الضرورة هنا يشبه معناها اننا لا نستطيع ان نفهم الشجرة دون ان نتخيل جذورها. وبعدما راقب اللعبي نفسه بشدة انطلق في رحلة البحث عن جوهر الاشياء طريقا ليدرك الواقع. لقد تغلم في السجن واجتاز هذه المرحلة بعد ان اجبر على مواجهة نفسه فاكتشف في داخله شيئا يصفه قائلا "ولد شيء في داخلي فات موظف السجن ان ينتبه اليه وفات السلطة ايضا وهم لا يستطيعون حتى ان يتخيلوه. ذلك الشيء الذي وصل الى داخلي العميق . انا لم أقيد وجودي في عالم الوقائع حتى خارج السجن فانه يفقد الحرية. هم بهذا المعنى مساجين. من يعش خارج وعيه يعش خارج جسمه ايضا عندئذ لا يستطيع ان يدرك معنى الحياة ولذلك لا يحصل على الحياة.

قلما ادركنا ونحن خارج السجن معنى الحياة، في هذه النقطة قال؛ في السجن ادركت في داخلي برا مهجورامن قبل جسمي وافكاري وبعد الوصول الى هذا البر المجهول نجحت في الحفاظ على هذا الاحساس في داخلي، انه الشعور بالحياة الداخلية ولعل خير مثال يؤكد ذلك رسالته الي زوجته جوسلين في ٣ ماي١٩٧٣؛ من المستغرب انه في كل الظروف التي عشتها هنا الى الان، وحتى

خلال فترات العزلة لم أعرف أبدا شيئا اسمه السأم. فقد كان رأسي دائما مملوءا لحد التخمة وكذلك كان قلبي. حتى انه في بعض الاحيان أجد صعوبة كبيرة في العودة من عالم رؤاي واحلامي. ثم هناك الاشياء التي تعرفينها جيدا، تلك التي أحدثك عادة عنها والتي تعلو على الباقي.

شيء آخر. قد يعتقد البعض ان الوقت في السجن أطول من غيره. أعتقد اني أحس بالعكس تماما. فالنهار يمر بسرعة لا بأس بها، ربما لان لا شيء يحدث او ربما لان العمل شيء مفقود. أظن ان للقراءة والحلم دورا كبيرا في ذلك. ثم ان الوقت غير موزع على شكل ساعات ودقائق، زمن اجتماعي وزمن اقتصادي وآخر ثقافي الخ. انه زمن غير قابل للتوزيع ينقضي من خلال قطع من الانفعالات والاحلام والحوار الاخوي الانساني.

بالنسبة لي كذلك، فهو زمن يصلني بك دون انقطاع. انه زمن الحب والزخم. لقد جعلتك تعيشين معي بشكل مختلف هذا المساء. ان حياة السجن حياة متواضعة. ولكننا استطعنا الا نكابدها ككابوس "او كهوان وضعف". جعلناها آهلة بقيمنا الاكيدة واحتفلنا فيها بانتصار الحب.

هل أحزنتك حبيبتي؟ لا، لا اريد ذلك. كنت أريد ان أجعلك تلمسين خفقات قلبي في تتابع المعيش العادي.

اللعبي يعتبر السجن مدرسة علمته الحرية. لقد قبل بالضغط عندما كانت حريته على سرير الموت وفي ذلك الوقت بالذات وقت الضغط شعر بالحرية بقوة وحصل عليها بشكل كامل.

ثمانية اعوام ونصف زمن طويل. كان جسده مقيدا ماديا ولكنه خرج من جسمه وطار الى عالم الروح حيث حقق فرادته واختلافه ايضا من هنا نفهم لماذا يختلف كتاب رسائل السجن عن الكتب الاخرى التي كتبها عبد الرحمن منيف ونبيل سليمان وغيرهما. فاللعبي تجاوز قضبان السجن بفضل الانتقال الى العالم الداخلي. لقد عانى بالتأكيد معاناة فردية تفوق التصور فقد انقطع عن زوجته الفرنسية (جوسلين) وعن ابنه ياسين، ابنته هند وآخر مولود قدس. ولكن هذه

المعاناة في حالته ليست كل شيء فلقد استمر بحثه الفريد مكثفا حادا ليكتشف عالما داخليا غنيا وصلبا بالنسبة لي شخصيا قد املك عالما داخليا ولكن بشكل بسيط وبائس بالمقارنة مع عالم اللعبي فهو في احلك حالات الظلام يمتلك رؤيا للمستقبل ويملك عالمه الداخلي الغني الذي ينير المستقبل. انه يتابع هذا العالم ويربيه وينميه وهذا شيء مدهش ومختلف عن العالم الداخلي لدي الاخرين ولا بد لي من ان أعترف بانني لا أتصور انني أستطيع ان أمتلك عالما داخليا تحت ظروف ضاغطة كظروف السجن عاناها وعاشها اللعبي. اللعبي وضع نفسه في خلوة مع نافذة مربعة، ومكان مربع، وفسحة مربعة طوال ثمانية اعوام ونصف حيث وصل الى العالم الداخلي. ان قوة روحه تدهشني. إن كلمة "حرمان" تستخدم بمعنى سلبي عادة ولكن اللعبي وسط هذا الحرمان يبرهن على انه حول الحرمان الى منبت للروح الغني لقد ازدادت قوة انتباهه للعالم فى السجن وأدرك ما يعارض جوهريا انسانية الانسان. وفهم ان كمية قليلة من المادة كافية ليحصل الانسان على الشبع. وفهم ان ليس من الضروري ان نلهث وراء الاشياء بنهم شيطاني واخيرا أصبح يقدر عميقا وعاليا أعمال البشر المجهولين، اعمال الشعب بناء على حرقة الاسئلة فهو يقول "انا تعلمت الاسئلة التي تحرقني في السجن".

قال لي "الاسئلة في السجن لم تكن في الذهن فقط. هناك كل سؤال كان يرمي جمرة في داخلي ولذلك طلع كتاب "حرقة الاسئلة" وقال: كل تصرف أتصرفه وكل ما أكتبه هو نتيجة تلك الجمرة. انا سجنت في عز حياتي وكان ذلك طريقي ولذلك قررت ان امشي الى نهاية حياتي على هذا الطريق.

كلمات اللعبي

قال لي "المهم ان تقرب كلامك من نفسك، فالكلمة التي استخدمتها في شعري او مقالاتي كان لا بد ان تبقى ملكي. واذا وجدت مسافة، بينك وبين الكلام لا بد ان ان تبذل جهودا لكي تحقق الوحدة بينكما غالبا ما تسبقني كلمتي وأحيانا

أسبقها"

عندما كنت أراقب وجهه وهو يتحدث لي أحسست كانني ارى نوعا من المعجزة أمامي لقد رأيته شخصا حقيقيا يعرض موضوعا صعبا وجوهريا كعبء شخصي حقيقي. انه واحد من العرب القلائل الذين قابلتهم وأشعرانه يحاول ان يتحمل موضوعا مصيريا جوهريا يخص العرب جميعا ويخص البشرية كلها.

لقد كان حديثي معه مفيدا للغاية بالنسبة لي على الاقل ولقد ساعدني ذلك اللقاء على فهم كتاباته لانني اقدر ان كلامه هو نفسه اللعبي. انه يبحث ليجد معنى عميقا لما سيفعله الانسان في المستقبل. لقد قال لي؛ كان عندي اهتمام شديد بالصوفية ولقد قرأت كتبا كثيرة عنهم ولكنني ودعت الصوفية. أعترف ان ذلك العالم عميق وذو جاذبية ولكنه عمق من الماضي وجاذبية من الماضي وانا أهتم بصورة اساسية بما يصور ما جربه الانسان وما فعله، تلك هي كلماته وذلك هو سلوكه. تجربة فذة توحد بين الكلمة والسلوك او على الاقل تعمل على تحقيق ذلك، وتطمح بانجازه على اكمل وجه.

اللعبي ينتج النص بعد التجربة فتجربته تنتج كلامه. اننا نقرأ عنده كلمات من نوع؛ انسانية، تاريخ، معركة، حب، وجود الخ. هذه الكلمات موجودة بكثرة في كتابات الاخرين، ولكن اللعبي عندما يستخدمها فانه يجددها وهي تولد مرة ثانية بارادة قوية. يمكنني القول بان اللعبي يتابع طريقه متحملا مشقات كثيرة ليجدد الكلمات ويعطيها معنى جديدا قويا رغم انها مستعملة، على نطاق واسع.

ثم قال لي انه لا يؤمن بالبؤس الفردي.

نحن عادة نميز بين ماساتنا الشخصية ومآسي الاخرين فالفرد يميز مصلحته دائما. ولذلك طلبت من اللعبي ان يوضح لي معني عدم ايمانه بالبؤس الفردي، فقال؛ "لا تعتبر الماساة التي تحدث لك شيئا استثنائيا غير عادي يخصك وحدك. من الضروري ان تفكر بمأساتك في ارتباطها مع مآسي الاخرين. فاذا قمت بالمقارنة فانك ستعرف ان ماساتك ليست مطلقة وليست استثنائية، عندئذ

تستطيع ان تراها في نسبيتها وتستطيع ان تواجهها بهدوء. اذا فكرت بماساتك ففكر مثلا باطفال الصومال، أعني فكر بمعاناة الاخرين بواسطة معاناتك هذا ما أقصده".

"لا أومن بالبؤس الفردي" هذا الموقف ذو معنى عميق للغاية، خاصة لانه موقف اللعبي الذي تحمل معاناة كبيرة فرضت عليه في المغرب الاقصى، معاناة من اجل الحرية والشعب والمستقبل. وأعترف انني كنت منغلقا في حزني الفردي عندما قابلته. كنت قد واجهت حادثة مؤلمة للغاية على المستوى الشخصي واعترف ان كلامه هذا حز في نفسي واعطاني نوعا من الراحة والمصالحة مع حالتي في الوقت نفسه.

في ذلك اللقاء تنقلنا بين مواضيع متعددة مثل القمع، البؤس، الفقر، المعاناة قال: انا بالكتابة أشترك في أعمال البشر. ولكن نحن لا نستطيع ان نحل هذه المشاكل الانسانية الكبيرة والمعقدة. بواسطة الكتابة انا أشترك مع الناس وأبرهن ايضا علي انني لا أعيش من اجل مصلحتي فقط. الكتابة بالنسبة لي برهان على انتمائي الي البشر.

الكتابة في حالة اللعبي تعني الشعر ولقد كتب الشعر بصورة رئيسة لقد قال: "شعري ووجودي كائنان متحدان ليشتركا معا في معركة انتاج الثقافة والفكر" اننا ننتظر سلوكه في شعره ونقرأ شعره في سلوكه.

وفي ذلك كله نرى اللعبي ككاتب عربي تحدى بشجاعة فائقة من اجل الحرية وتحمل بارادة ثابتة معاناة استثنائية لكي يشارك البشر الآخرين في جهودهم لصياغة مستقبل حر يليق بالانسان.

يوسف ادريس
الطريق الى معرفة المجتمع في مصر

موضوعات فارقة

ادب يوسف ادريس أخذني الى اعماق حياة الشعب في مصر. وقد ساعدني على فهم شخصية مصر، وقدم لي مادة ملموسة عن التفاصيل اليومية في المجتمع. د. جمال حمدان قدم لي فهما نظريا عميقا واستكملت الصورة من خلال أعمال يوسف ادريس القصصية. وفي الوقت نفسه فانني أعبر دائما عن تقديري الخاص لهذا الكاتب الكبير الذي واجه ظروفا صعبة في تاريخ مصر الحديث. انه الكاتب الذي يقدم الواقع الملموس طازجا حيا في قصص دافئة ممتعة.

موضوعات فارقة؛

قدمت يوسف ادريس للقارىء الياباني من خلال ترجمة أعماله التالية؛ الحرام - أرخص ليالي - بيت من لحم - العسكري الأسود - وكتبت عن قصته "حادثة شرف" لقد أثرت بي أعماله تاثيرا عميقا على مستويين؛ - التقنية الرفيعة في كتابة القصة .- الموضوع الذي يمثل جوانب خطيرة من حياة المجتمع في مصر.

قال لي يوسف ادريس مرة؛ انه يريد ان يصل الى العالمية عبر قصص وروايات تصور خصوصية شعب مصر. ولقد نجح في ذلك - كما اعتقد خاصة في رواية "الحرام". ومن هذه الزاوية نستطيع ان نفهم اخلاق الفلاحين في مصر، أعني ما يميز الفرد الذي يعيش على ضفاف النيل في مصر. والرواية لا ينحصر عالمها في رصد السلوك الاخلاقي ولكنها في العمق تتصدى لتصوير ما يتوقعه

من الفلاحين في صناعة مستقبل مصر. من عماد مصر؟ من خلال انتاجه فهمت انه لا يعتبر المثقفين او رجال الدين، وسكان المدن ضمانا لمستقبل مصر. فالفلاحون بالنسبة له هم الذين سيبنون مصر المستقبل. واقدر ان البحث عن ضمان المستقبل لمصر كان محور حياته ولذلك جابه السلطة منذ كان طالبا في الجامعة. يوسف ادريس وصل الي الفلاحين عبر بحث طويل ومن هنا جاءت صورة الفلاحين كما قدمها الكاتب تعبيرا عن المسائل الجوهرية المطلوبة لتكوين مستقبل مصر. عندما ترجمت رواية الارض لعبد الرحمن الشرقاوي كونت صورة اولية عن حياة الفلاحين في الريف وتلك الرواية ساعدتني على الدخول الى المعاني العميقة في ادب يوسف ادريس. ان صورة الفلاحين عند ادريس مرتبطة دائما بمصير مصر وبما تواجهه مصر في الحاضر والمستقبل. وهذه الصورة عند يوسف ادريس مهمة جدا للقارىء الاجنبي فهي تشد انتباهه بقوة لكي يدرك العمق الحقيقي لحياة الشعب في مصر.

في دلتا مصر يشكل الفلاحون المسلمون اغلبية ساحقة، وهم يعتقدون بالقرآن كتابا فيه حل لكل المشاكل الصغيرة والكبيرة ولذلك فهم لا يحتاجون الى كتب اخرى. ويلعب مفهوم الحلال والحرام دورا اساسيا في الحكم على سلوك الناس. هذا المفهوم يأخذ شكلا كليا مجردا. ولكن يوسف ادريس يبتعد في كتاباته عن المجرد وينغمس في حرارة اليومي المحسوس المعيش. ولذلك يتابع مصائر الافراد واحدا واحدا ليقدم لنا الحياة كما تجري في الواقع بكل حراراتها وواقعيتها ولذلك نجد عنده احكاما اخلاقية مبنية على اساس عملي تحدده شروطه ومن هنا نكتشف عنده تبريرا او عذرا او غفرانا لافراد مارسوا الحرام. هنا يصبح الواقع قاضيا ورؤيا الفنان شاهدا وحكما. وهذه النقطة فريدة في ادب يوسف ادريس قلما وجدناها عند كاتب عربي آخر واقدر ان ذلك لعب دورا اساسيا في استقبال القارىء العالمي لادب يوسف ادريس.

وعلى سبيل المثال عندما صدرت ترجمتي لرواية الحرام عام ١٩٨٤ م قدمتها الجرائد الثلاث الكبرى في اليابان في مقالات كبيرة نسبيا وفي يوم واحد. وهذا

الامر نادرا ما يحصل مع الكتب المترجمة. وكمثال آخر فقد نشرت رواية "العسكري الاسود وقصة بيت من لحم" في سلسلة الادب العالمي وهذه السلسلة تضم عشرين مجلدا فقط. يوسف ادريس كان الكاتب العربي الاول في اليابان الذي اعتبر ادبه عالميا.

يوسف ادريس فهم من قراءته للادب العالمي والثقافة العالمية ان هناك علوما تعمق فهمنا للانسان وتساعدنا على ادراك قوانين المجتمع ولانه كان دائما يخاف على مستقبل مصر فانه تصدى لكل الفئات، او الجماعات او الافراد الذين قدر انهم لا يساعدون مصر في بناء مستقبلها. وعلى هذا الاساس تناول يوسف ادريس سلوك نماذج من رجال الدين الاسلامي في قصص متنوعة مثل؛ اكبر الكبائر، بيت من لحم. اكان لا بد يا لي لي؟

وغيرها من المهم هنا ان نؤكد ان يوسف ادريس لم يكتب ضد الاسلام، ولم يكن يهدف الى مس الاسلام ولكنه كان يبحث عن جوهر الافعال الانسانية ثم من سيكون عماد مصر وقائدها في المستقبل. ولقد قرر ان الفلاحين هم ذلك العماد المنشود كما اسلفت.

يوضح يوسف ادريس بلا لبس اسباب تصديه لسلوك رجال الدين فيقول رجال الدين لهم تاثير كبير على الفلاحين في الارياف وعلى العمال في المدن واخشى ان يلعبوا دورا اساسيا قياديا مستغلين سلطتهم الدينية عندئذ يحركون الجمهور بدون اي قاعدة وبكثير من الاخطاء.

الكاتب موقف؛

في مجتمعات كالمجتمع العربي أري من الضروري ان نميز مواقف الكتاب من السلطات ومن القضايا الاساسية المتعلقة بمسيرة الشعب. وعلى هذا الاساس فان يوسف ادريس كاتب موقف. نحن نعرف المشكلة التي واجهها طه حسين في نهاية الثلاثينيات عندما صدر كتابه "الشعر الجاهلي" طه حسين لم يحافظ على موقف المجابهة، ورغم شجاعته ومكانته العالية فقد قبل بنوع من المصالحة هي

اقرب للاستسلام، وكذلك عبد الرحمن الشرقاوي. كلاهما انسحب من المعركة مفضلا السلامة وبالطبع مع تقديرنا الكامل لاهمية موقفهما ولكن الامر مختلف مع يوسف ادريس. انه كاتب الموقف الذي لا يتراجع ولايستسلم ولا يصالح ولا بد ان من عرفوا يوسف ادريس وادبه يتساءلون؛ من اين له تلك الشجاعة كلها؟ وتلك الصلابة كلها؟ لا أريد هنا ان أجزم بسبب واحد ولكنني أذكر ايمانه القوي بمصر وناس مصر وايمانه بقدرة الفلاحين على قيادة مستقبل مصر وبالاضافة الى تكوينه الشخصي وقدرته الهائلة على السيطرة في اي مواجهة. ولقد بدأ حياته كموقف منذ كان طالبا في الجامعة كما هو معروف وما يهمنا هنا هو ان نسجل تقديرنا العالي ليوسف ادريس كموقف، دون ان نحكم هل كان مصيبا ام مخطئا في مواقفه السياسية فليس هو المهم، المهم ان الكاتب لم يكن تابعا لاي سلطة سوى سلطة ضميره الادبي ولم يستسلم لاي ضغط خارجي وهذا موقف فريد نتمنى لو أصبح قاعدة عند الكتاب العرب.

يصف يوسف ادريس نفسه فيقول "انا مختلف عن الكاتب الذي يجلس علي كرسي في المقهى، وفي يده عصا وفي الأخرى مسبحة. انا أقفز وأتكلم أنفجر وأكره وأعاني من الكآبة وأفرح فرحا مجنونا وأتحرك بنشاط وأرحل وأقابل الناس، أتجول. انا أداة حية في المجتمع، فاذا فقد مجتمعي وعيه أهمس اليه وأنفخ عليه ليصحو وأدفعه ليخرج الى المعركة واحيانا أخزه بقلمي لأجدد نشاطه.

الملحق

لقد أجريت أحاديث كثيرة مع العديد من وسائل الاعلام العربية، نشر أغلبها فى حينه، إننى إذ أختار نماذج منها فإنني أراها تلقي ضوءا على العلاقة بين الثقافتين: العربية واليابانية كما فهمتها في أوقات مختلفة، آملا ان يجد فيها القارىء بعض المتعة، او الفائدة. على أي حال إننى أقدم الحوارات التالية بكل تواضع مغتمنا الفرصة لكى أشكر الاصدقاء الذين تحملوا متاعب كتابتها ونشرها.

«في حديث مع المستغرب الياباني نوبوآكى نوتاهارا»

أنجز الحوار عبدالله التهانى

في صمت حضر المستعرب الياباني المعروف نوبوأكى نوتاهارا الى المغرب وتنقل بين بعض مدنه. وكانت مراكش محطة تاريخية واجتماعية وطبيعية، أغرته بزيارتها.

حين استقبلناه فى محطة القطار، أثارنى على الفور تميز شخصيته ودقة الاشياء التي يسأل عنها ويشتغل بها. فهو على انطلاقه وبساطته وتلقائيته، يحتفظ بكثير من مقومات الشخصية التي تحترم عملها وتخلص له وتدقق فيه.

وعشية آخر يوم له بالمغرب، وكان يوما حارا ضاقت به المدينة، أنجزت هذا الحديث مع المستعرب نوتاهارا بالعربية الفصيحة، وان كانت بعض أجوبته قد تخللتها تعابير والفاظ من اللهجة المشرقية.

وسواء خلال الحوار الخاص بالعلم او فى اللقاءات اليومية التى جمعتنى به طيلة أسبوع كامل لمست لدى الرجل اعتزازا كبيرا باللغة العربية وحبا لاهلها وتضامنا وتعاطفا مع نضالاتهم وتطلعاتهم فى النهضة واالتقدم والتحرر.

قمت بنقل انتاجات ادبية عربية الى اللغة اليابانية ولك مشاريع جديدة تشتغل فيها حاليا، فهل تسمح ان نختزل الزمن ونعود بك الي الوراء لنسألك عن ظروف تعاطيك للدراسات العربية وعن بداية الرحلة؟

– قبل خمس وعشرين سنة، دخلت الى قسم اللغة العربية فى جامعة طوكيو للدراسات الاجنبية وحيث ان اهتمامى وميلى كانا للادب، فقد اتجهت عنايتي الى الادب العربى، وتركزت حوله، خاصة واننا فى اليابان لا نعرف شيئا عن الادب العربي الحديث فى حين هناك معرفة نسبية بالادب العربي القديم.

وقد سافرت الى مصر فى العام ١٩٧٤ ومكثت هناك سنتين فتعرفت على وجوه من الادب العربي الحديث، والمصرى منه على الخصوص. واذكر انى شرعت فى قراءة رواية: "الارض" لمؤلفها عبد الرحمن الشرقاوى فواجهتنى مشكلة اللهجة المصرية وهكذا انتقلت للاقامة في محافظة الشرقية شمال القاهرة كى اتعلم تلك اللهجة فعشت مع الفلاحين وتعلمت من الصفر لهجتهم والحقيقة ان فضل سكان القرية على، كان كبيرا اذ اتصالي بهم ساعدنى كثيرا فى ترجمة مسرحية "الارض" ولا بد ان اشير هنا الى ان عملية الترجمة استغرقتني ثلاث سنوات.

وبعد هذا قمت بترجمة رواية "الحرام" ليوسف ادريس ورواية "ارخص ليالي" لنفس الكاتب. لقد قرات عن تاريخ مصر وعن الشخصية المصرية فكانت النتيجة ان الفت كتابا عن مصر باللغة اليابانية ونشرته بعنوان: "اين المصريون؟"

كما قمت بترجمة رواية "تلك الرائحة" للكاتب المصري صنع الله ابراهيم غير ان هذه الترجمة لم تنشر في كتاب الى حد الساعة (نشرت فى مجلة غوليو فى ١٩٩٣).

على انني مهتم ايضا ومتتبع لاعمال كتاب آخرين. فانا مثلا أقدر كثيرا يحيي حقي صاحب رواية: "دماء وطين" ورواية "قنديل ام هاشم". كما اقدر الكاتب يحيى الطاهر عبد الله، مؤلف رواية "الطوق والاسورة" الاستاذ اكيهيرو تاكانو ترجمها ونشرها في ١٩٩٤.

يهمنى هنا ان اوضح شيئا وهو ان الترجمة لا تشكل الاجانبا من اهتماماتي التي تشمل الادب المصري والادب السوري والقضية الفلسطينية وضمنها الثقافة الفلسطينية طبعا.

– الملاحظ انك لا تترجم سوى لاسماء محسوبة على تيار الموجة الجديدة فى الرواية العربية بالمشرق. الا يثيرك كاتب آخر من جيل الرواد. أقصد بالتحديد نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم.

– لم يعجبنى كثيرا توفيق الحكيم بينما راقنى وأثارنى نجيب محفوظ وان لم أطلع على أدبه بعمق. لقد قرأت "عودة الروح" لتوفيق الحكيم كي افهم جانبا من طبيعة الفلاحين. لكن زميلى الياباني الاستاذ ماسارو فوريواتي الذي يعمل باحدى الجامعات اليابانية انجز ترجمة جيدة لرواية توفيق الحكيم؛ "يوميات نائب في الارياف" ولكتابيه الاخرين؛ "عودة الروح" و"عودة الوعى" اللذين ظهرا كذلك باليابانية. انني هنا لا استطيع ان اقول شيئا كثيرا عن توفيق الحكيم فانا لا اتحدث الا عن الاشياء التي اهتم بها. اما نجيب محفوظ فقرأت له ثلاثيته الرائعة. وفي اليابان توجد ترجمة يابانية لروايته؛ بين القصرين. واملي ان يتمكن احد من الزملاء اليابانيين الذين يشتغلون بالادب العربي من ترجمة بعض اعمال نجيب محفوظ مثل؛ "زقاق المدق" و"خان الخليلي" و"بداية ونهاية".

– اشرت في خاتمة جوابك على سؤالى الاول الى اهتمامك بالادب العربي المعاصر في سوريا، هل تحدد لنا بالضبط اسماء او كتابات معينة من هذا الادب، تركز عليها اهتمامك هذا؟

– اقدر كثيرا هاني الراهب. وانا الان بصدد ترجمة روايته؛ "الوباء". انه يعي جيدا دوره وموقعه ككاتب وهو يوظف هذا الوعي بشكل دقيق في عمله يبلوره باسلوب ناضج. وعلي الرغم من ان اقامتي في سوريا كانت قصيرة الا انني استطعت ان احدد مواقع الكتاب السوريين جيدا واحيط بمواقفهم وافكارهم. واستطيع ان اقول ان هناك ضغطا تمارسه السلطة على الحياة الثقافية وعلى الكاتب شخصيا. طبعا انا لا اتحمل ولا اتقبل امرا من هذا النوع، لاننا في اليابان

لا نعرف مثل هذا الوضع وكتابنا يقولون ما يريدرن دون خوف ولا خطر. وهذا فرق اساسي بيننا وبين زملائنا في الدول العربية. من هذا المنطلق اقدر هاني الراهب لانه يكسر ذلك الوضع ويكتب بتميز وشجاعة. ولقد اعجبت ايضا بالكاتب السوري حنا مينه وخاصة في روايتيه؛ "الشراع والعاصفة" و "الياطر". لقد ذهبت الى مدينة اللاذقية حيث عشت وطفت بين المقاهي والاماكن والمعالم الواردة في رواية حنا مينه. لقد استوعبته جيدا لكن على الرغم من ان انتاجه يعجبني الا انني بدأت أشك في مدى صدق مواقفه الفكرية ككاتب. والسبب انه كتب رواية؛ المرصد تقربا من السلطة فحصل على وظيفة سامية ومركز كبير في وزارة الثقافة ومع اني اقرأ له لم افكر الى الان في ترجمة شيء من اعماله. قد يكون هذا رأيا شخصيا لا يلزم الاخرين لكنني متمسك به فانا اقدر الكتاب الذين لهم مواقف ثابتة ومبدئية. ولهذا السبب اخترت من الادب السوري المعاصر الكاتب هاني الراهب وقدرت كثيرا علي الجندي الذي يعاني وحيدر حيدر ايضا. وبالمناسبة دعني أقل لك باني معجب ايضا بعبد الرحمن منيف.

– هناك نقطة مهمة ومتميزة في اهتماماتك وانشغالاتك الادبية والسياسية هي القضية الفلسطينية ومن المناسب جدا في هذا الصدد ان نسألك عن تصورات الكتاب اليابانيين حول المشكلة الفلسطينية والادب الفلسطيني ايضا .

– انا بالصدفة حصلت على كتاب غسان كنفاني؛ "عائد الى حيفا" وبعد قراءة هذه الرواية بدأت في ترجمتها من دون سابق اتفاق مع اي ناشر ياباني ولا اية جهة ثقافية. لكن بعض الادباء اليابانيين قرأوا ترجمتي مخطوطة فقرروا ان ينشروها في مجلة ادبية مهمة تصدر عندنا في اليابان. اما عن صدى القضية الفلسطينية فدعني أقل لك بانه سابقا كان من الصعب على الياباني ان يفهم جوهر القضية فهما سليما بسبب التباس المواقف، وتعارض وجهات النظر في وسائل الاعلام عندنا بحيث لم يكن الانسان يعرف بمن يثق. وفي ظل هذا الوضع الاعلامي الملتبس جاءت ترجمتي لرواية "عائد الى حيفا" لتؤدي دورا مهما لدى فئة من الجمهور الياباني وتساعده على فهم جزء من القضية الفلسطينية وينبغي

ان اشير هنا الى ان غسان كنفاني كان قد توفي اثناء اشتغالي بترجمة روايته المذكورة. وبعد موته حصلت على آثاره الكاملة وقمت بترجمة خمس من قصصه القصيرة بالشكل الذي يسمح للقارىء الياباني أن يتتبع تطور القضية الفلسطينية ثم تولى زميلي الاستاذ توسيو كورودا انجاز ترجمة كتاب "رجال في الشمس" بعدها اصدرنا كتابا واحدا مشتركا، يضم جميع هذه الترجمات وبالتالي يغطي مراحل بارزة في تطور القضية الفلسطينية وقد ادى هذا الكتاب دورا مهما واساسيا في فهم جوهر المشكلة الفلسطينية لدي الجمهور في اليابان وبعد هذا ترجمت رواية "ستة ايام" للدكتور حليم بركات حتى نعرف بدايات مشكلة الشعب الفلسطيني اي ما كان عليه الوضع في فلسطين قبل قيام دولة اسرائيل.

وقد صدرت هذه الرواية بالفعل في طوكيو مترجمة الى اللغة اليابانية وفيما بعد قرأت لمحمود درويش واستوقفني نثره طويلا خاصة منه كتاب "يوميات الحزن العادي " لانني لا استطيع ترجمة الشعر لصعوبة الترجمة في هذا الفن من الكتابة. كما اهتممت بالكاتب الفلسطيني آميل حبيبي وخاصة في عمله الجيد "الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد ابي النحس المتشائل" وفي هذا الاطار لابد ان اشير الى ان صديقي الاستاذ يوشيناري نيشيناغا من القسم الفرنسي بجامعتنا قد ترجم الى اليابانية كتاب "رسالة الى صديق يهودي" الذي ألفه ابراهيم الصوص ممثل منظمة التحرير الفلسطينية بباريس. وقد نشرت هذه الترجمة موخرا في طوكيو. واكتشفنا ان الكتاب نفذ الى قلوب اليابانيين تماما كما كان الحال مع كتابات غسان كنفاني: عائد الى حيفا وسواها من اعماله التي ترجمناها والحقيقة ان رسالة ابراهيم الصوص التي وظفت موضوع الانتفاضة توظيفا جيدا قد شرحت بشكل رائع موقف الفلسطينيين ولذلك فهي رسالة موثرة. ومن هذه الناحية نحن كيابانيين لا نستطيع ان نهرب منها ولقد توقعنا ان التجاوب معها سيكون كبيرا فكان فعلا. اننا في اليابان نشكل مجموعة ثقافية من خمس اشخاص لدينا مشاريع كثيرة في التعريف بالادب العربي الحديث.

ونحن نفكر في تقديم مزيد من الروايات العربية. لكن الاقبال ما زال في بداياته وهو غير قوي حتى الان. والناشرون عندنا لا يتحمسون لاي شيء. انا مثلا لم اكسب تجاريا من ترجمتي لرواية "الحرام "ليوسف ادريس لان ناشرا صغيرا هو الذي قام بنشرها على الرغم من ان الجرائد الثلاث الكبرى في اليابان قد طلعت في يوم واحد بثلاث مقالات بارزة عن ترجمتي هذه علما بانه في اليابان لا يوجد بيت لا تدخله الجريدة. لكن يجب الاعتراف هنا بان رسالة ابراهيم الصوص المشار اليها سابقا قد تمت قراءتها في الطبعة اليابانية على نطاق واُسع عندنا في اليابان.

– انت كاتب ومترجم واستاذ بالجامعة اليابانية ولك تجارب وخبرة بميدان الصحافة والنشر. هل يمكن ان تحدد لنا بتركيز اهم اتجاهات القراء في المجتمع الياباني وموقع الادب ضمن اهتمامات القراء؟

– ان الانسان الياباني لا يمتلك دينا ولهذا السبب يعتمد في تغذية روحه وفكره على قراءاته في الفلسفة والادب وعلى باقي الوان الابداع. الانسان عندنا يبحث لتحقيق ذاته عن قيم فكرية وروحية يريد ان يؤمن بها. ولذلك فهناك دائما جمهور في اروقة المكتبات. واعتبارا لهذا الوضع يبدو من الاهمية بمكان ان نترجم نماذج من الرواية العربية حتى نقدم هذا الانتاج الى جمهورنا الذي له اهتمام بالشوون الانسانية وما دمنا نختار روايات عربية جيدة فاننا سنحصل على جمهور ياباني كثير تماما مثلما تحقق ذلك بالنسبة لادب لامريكا اللاتينية مترجما الى اليابانية وهناك اقبال دائم على استهلاك ابداعات مترجمة عن هذا الادب.

– انت في زيارة ثقافية للمغرب. وقد لمست خلال احاديثنا ومذاكراتنا الفكرية ان لديك رغبة اكيدة في اضافة ملف الادب المغربي الى باقي ملفات اهتماماتك الثقافية ترى ما هي الصورة التي كونتها او كانت لك عن ادبنا الحديث؟

– انا والى حد الساعة لا اعتبر نفسي قارئا جيدا للادب المغربي غير ان تعرفت الى بعض الكتاب المغاربة مثل محمد برادة وعبد الكبير الخطيبي وعبد الجبار السحيمي ومحمد شكرى والى آخرين. ولقد شرعت في ترجمة سيرة

"الخبز الحافي" لمحمد شكري وقطعت في هذه الترجمة شوطا مهما بحيث انني انهيت ثلث النص. وقد زرت طنجة وتطوان التي اخذني اليها محمد شكري وفي نفس الوقت انا افحص روايات مغربية اخرى مثل "لعبة النسيان" لمحمد برادة. واستطيع ان اقول بانه كان لدي حماس في فترة سابقة للاطلاع على الادب المغربي وانا الان بصدد تجديد ذلك الحماس.

مع هذا يجب الاعتراف بانني ما زلت اجهل الشيء الكثير عن الادب المغربي لكنني اخطط لقراءات معمقة في كتبه وعازم كل العزم للاحاطة به ومعرفته جيدا كما اني مهتم الان بالتعرف علي البيئة العامة لهذا الادب ولهذا البلد الجميل. وانا لست مستعجلا امري. فالطريقة التي اتبعها عادة في حالات الاكتشاف المماثلة هي اني احصل على الروايات وافحصها ثم اطوف في البلد والتقي بالادباء ولو في فترات مختلفة كما اسعي للتعرف على الشعب مباشرة وعلى اوسع نطاق. ثم ابدا عملي في ترجمة ما بدا لي مهما وذا فائدة ومتعة لانني لا استطيع ان احدد ما سأترجم الا بعد تفكير طويل كما اني لا احدد اهداف زيارتي مسبقا بل اعتمد على الصدفة وعلى الظروف اذ انا اؤمن بأن الصدفة غنية مهمة.

– انت استاذ بكلية الدراسات الاجنبية في طوكيو وبالضبط في القسم العربي فهل نتعرف من خلال توضيحاتك على ظروف تدريس اللغة العربية والثقافة العربية في هذا القسم.

– في جامعتنا بطوكيو يدرس الطلبة الوافدون على القسم العربي لمدة اربع سنوات وبامكانهم بعدها ان يتابعوا دراستهم لنيل الماجستير بنفس القسم او بقسم جامعة اخرى، وبخصوص عدد الطلبة اليابانيين المتخصصين في اللغة العربية حاليا اقول لك بانه في جامعة اوساكا يوجد عشرون طالبا في القسم العربي. اما في طوكيو حيث اعمل انا فيوجد علي الاقل مائة طالب يتخصص في اللغة العربية ويدرسون الى جانبها علوما ومعارف اخرى باليابانية كعلم النفس والفلسفة وعلم الاجتماع.

ان المهم في نظري الان اننا بدانا ندرس اللغة العربية والثقافة العربية

والاسلامية وذلك وفق برنامج مضبوط وباسلوب ومناهج منظمة ومنتظمة بحيث نتوفر حاليا علي انظمة لتدريس هذه اللغة الجميلة التي لها مستقبل جيد في اليابان فاضافة الى المكسب الثقافي والحضاري من تعليم العربية وما تسمح به من اطلاع على تراث وحضارة العرب والمسلمين هناك ايضا الجانب الاقتصادي او المكسب المادي بعبارة اوضح بحيث يلعب هذا العنصر دورا مشجعا في التعاطي لهذه اللغة. فالبنوك والشركات والمؤسسات الانتاجية في اليابان تتنافس لاجتذاب الخريجين اليابانيين من قسم اللغة العربية.

(العلم الثقافي)

الحاجز كبير بين الثقافتين

حوار مع المستعرب الياباني؛ نوبواكي نوتاهارا وفيق خنسة

القارئ العربي يعرف القليل عن اليابان ويعرف الاقل عن نتاج المستعربين اليابانيين فكيف بدأ الاهتمام بالثقافة العربية وكيف تطور والى اين وصل ذلك؟

تجربتنا جديدة والزمن مهم دائما نحن بدأنا منذ ثلاثين سنة تقريبا وهذه المدة قصيرة بالنسبة لموضوع جدي وغني ومتنوع كموضوع الثقافة العربية ومع ذلك يمكننا ان نميز اربعة أجيال من المفكرين والباحثين اليابانيين في قضايا الشرق الاوسط والثقافة العربية الاسلامية بعامة؛ في التاريخ والادب والسياسة والدين الخ.

١- الجيل الاول

الجيل الاول هو جيل اكتشاف الموضوع؛ اي الجيل الذي بحث في القضايا العربية الاسلامية لاول مرة ولفت الانتباه الى هذه الثقافة لقد عرف هذا الجيل القارئ الياباني على عالم هذه الثقافة ولقد لعب كل من المفكرين؛ مائجيما شينجي *Maejima Shinji*

إزوتسو توشيهيكو *Tosihiko Izutu* لقد لعبا دورا مهما للغاية وهما معروفان

على نطاق واسع في اليابان. توشيهيكو إزوتسو مثلا عن طريق الفلسفة الاسيوية والفلسفة اليونانية وبالتالي الاوروبية عن هذا الطريق دخل عالم الثقافة العربية الاسلامية وهو اول ياباني ترجم القرآن الى اليابانية على اي حال أثرت كتابات هذين المفكرين تاثيرا كبيرا في الجيل الثاني

ب- الجيل الثاني

بعد الجيل الاول اتسعت دائرة الاهتمام وازداد عدد الباحثين فبالاضافة الي جهود الكتابة تم تحقيق اشكال من تنظيم الباحثين وتوفير الاتصال بينهم، وبالتالي تبادل الخبرة ومناقشة الافكار علنا ويمكن ان نذكر الاستاذ إتاغاكي يوزوق *Itagaki Yuz* .

ميزة هذا الباحث انه يمتلك القدرة علي التنظيم ولقد قدم اعمالا كثيرة في مجلات الدراسة وتنظيم الباحثين في شؤون الشرق الاوسط وكذلك تنظيم اصدار كتب الدارسين ولقد شارك معظم المختصين بقضايا الشرق الاوسط في برنامجه وكان دائما وما زال يجذب طلاب للدراسات العليا للاختصاص في مجالات الثقافة العربية الاسلامية

ج- الجيل الثالث

بفضل جهود الجيلين السابقين أصبح اهتمامنا يشكل تيارا واضحا جيلي هو الجيل الثالث ونحن نتابع ونحاول ان نعمق معرفتنا ومعرفة القاريء الياباني أكثر فأكثر.

د- الجيل لرابع

جيل الباحثين الشباب.

ترافق نشوء الاستعراب الياباني مع صعود اليابان الاقتصادي فهل لعب الاقتصاد، السياسة دورا اساسيا موجها ام هناك اسباب اخرى؟

عندنا في اليابان لا توثر السياسة عميقا في موضوع الاستعراب كما تسميه التاثير يأتي من مجالات الدراسة نفسها. دراسة التاريخ اولا ثم الدين، العلاقات الدولية، الادب وهكذا بعد ذلك يأتي اهتمام الباحث فاذا وجد ما يثير اهتمامه

ويشجعه استمر في الدراسة والبحث.

- الاستشراق الغربي نشأ نتيجة عوامل كبيرة؛
- ولع القرن الثامن عشر بالاكتشاف .
- سباق الحكومات الاوروبية لايجاد أسواق واسعة.
- صعود البرجوازية ونمو الصناعة نموا هائلا.

هذه العوامل وغيرها دعمت ونشطت ووسعت دائرة الاستشراق الغربي ماذا عن اليابان؟

تقصد الظروف الاجتماعية والسياسية اولا؟ بالطبع تؤثر في الحياة عامة وفي العلاقات بين الشعوب الخ. ولكن في موضوع الاستعراب لم تؤثر عميقا بمعني لم تؤسس ولم توجه ولم تتدخل. طبعا اليابان اهتمت لفترة طويلة بالنفط، ولذلك اهتمت بالمنطقة العربية المنتجة للنفط وازداد عدد المقبلين علي تعلم اللغة العربية ولكن تيار البحث استمر واتسع ولا علاقة له بالاهتمام الرسمي للدولة. أريد ان اقول ان البحث عن الحقيقة هو مايربط الدارس الياباني بالعالم العربي اهتمام الباحث موقفه. انني اتحدث عن العوامل الداخلية مثلا قبل سنوات لم يكن في جامعة طوكيو (اكبر واهم جامعة في اليابان) قسم لدراسة شؤون الشرق الاوسط، انا تحدثت عن المحتويات وانت تعرف الكثيرين من الباحثين ويمكنك ان تسالهم لماذا اختاروا مجالات تخصصهم، عندئذ ستتأكد ان الاسباب بعيدة عن تيار السياسة اليومي سياسيا واقتصاديا.

مرة اخرى لماذا لم يظهرالاستعراب الياباني في القرن الماضي مثلا؟ مع الاستشراق الاوروبي؟ انا اسال عن الاسباب؟

نحن لم نعرف الاشيئا قليلا عن البلدان العربية، وحتى الان معرفتنا ليست كبيرة في البداية عرفنا عن طريق الغرب؛ اوروبا وامريكا. مثلا بعض الدارسين اليابانيين درسوا الاسلام في اوروبا وليس في البلدان العربية. في البداية كان التقدير الياباني ينصب على الدراسة في اوروبا ولكن الجيل الثاني من الدارسين توجه الى البلدان العربية مباشرة وللامانة الاستاذ إتغاكي هو الذي بدأ هذا

الاتجاه. ذهب الى القاهرة ودرس هناك ونحن الان نقدر هذا المنحى. باختصار في البداية فهمنا عن طريق الغرب وعن طريقهم اكتشفنا الحضارة العربية، اما الان فنحن نعمل لكي نفهم بانفسنا مباشرة.

كثير من المفكرين العرب يدينون حركة الاستشراق الغربي كاملا فمثلا عبد الله العروي في كتابه "الايديولوجية العربية المعاصرة" يرى ان الاستشراق أنشأ موضوعه إنشاء وفقا لتصوراته المسبقة فشوه وعجز عن الفهم. يرى ادوارد سعيد في كتابه (الاستشراق) ان المستشرقين كافة عنصريون مسيحيون مؤسساتيون. ويرى حسن حنفي في كتابه "التراث والتجديد" ان الاستشراق مسيحي يهدف الى القضاء على الاسلام وهكذا. ماذا عن الاستعراب الياباني؟

ساحاول الاجابة ولكن لا اعرف اذا كانت تكفي في حوار هكذا، على اى حال أريد ان اقدم ثلاث نقاط:

ا- نحن فهمنا بالتدريج الان أصبحت الامور واضحة، في البداية كررنا ما قاله الاستشراق الغربي لم يكن عندنا مصدر آخر للمعلومات.

ب- أحسسنا انهم لا يقولون الحقيقة أحيانا والقضية الفلسطينية مثال ممتاز على ذلك، لقد فهمنا متأخرين هذا صحيح ولكننا فهمنا حتى الصحافة عندنا كانت تقدم القضية الفلسطينية لليابانيين نقلا عن الاعلام الامريكي والاوروبي الان تغيرت الصورة الصحفيون انفسهم فهموا ان ذلك الاعلام لا يقول الحقيقة. وللامانة مرة أخرى ان الاستاذ إتاغاكي لعب دورا مهما في كشف التشويه الذي يتم دائما للقضية الفلسطينية عبر الاعلام الغربي ولذلك بدأنا نذهب بانفسنا لنرط الحقائق مباشرة وأصبح لدينا القدرة على تمييز الحقائق لقد فهمنا ان علينا ان نستقبل الكتابات الغربية بحذر وتدقيق وحيطة.

ج- السفارة الاسرائلية تجتذب بعض الشباب للدراسة في إسرائيل على حساب الحكومة الاسرائلية وتريد ان تستغل نتائج دراسة أولئك الشباب ولكن النتائج تأتي غالبا عكس ما تريده تلك السفارة يوجد صحفي ياباني معروف درس في إسرائيل وعاد مؤيدا للقضية الفلسطينية لانه رأى بنفسه التناقض بين

ما تقوله وسائل الاعلام الاسرائيلي وبين الواقع ويمكن ان نذكر هنا كمثال ايضا الباحث أوئيواكاوا كازوماسا *kazumasa Oiwakawa* (توفي في الخمسين من عمره)، هذا فعال وذو دلالة كبيرة نحن الان نرى الحقائق والمعلومات متوفرة لنا ونستطيع ان نحكم بانفسنا وحتى الحكومة الاسرائلية لا تستطيع ان تكذب علينا.

تعتقد ان الاستعراب الياباني موضوعي؟

الان بدأ يتكون التيار الموضوعي مرة ثانية القضية الفلسطينية مثال جيد لتوضيح هذه المسألة، اوروبا وامريكا وراء اسرائيل هذا واضح وهناك محاولة دائمة لطمس الحقائق ولكننا نفهم ذلك الان، نحن نتريث قبل التسليم بالصحة ونريد ان نتأكد بانفسنا، اليابانيون فهموا هذا ايضا ومع الجيل الثاني من الباحثين بدأنا ننتقد كتاب ادوارد سعيد (الاستشراق) ترجم الي اليابانية واستقبلناه باهتمام، لكل ذلك أعتقد ان الباحثين اليابانيين ليس لديهم سوء نية تجاه العرب او تجاه القضايا العربيةواذا وجد باحث او مختص او صحفي يزور الحقائق او يكتب بسوء نية فاننا نعزله بسهولة أعني لا بد ان يدافع عن افكاره علنا أمام الجميع لا بد ان يشارك في النشاطات الجماعية فالنقاش العلني المفتوح والنشاط الجماعي يفضحان ذلك الصنف ان وجد وانت تعرف نماذج منهم وتعرف انهم معزولون لا يهتم بهم احد لانهم يبحثون عن مصالحهم فقط وليس لتوضيح الحقائق. لقول الحقيقة مرة ثانية ليس عند الباحث الياباني سوء نية تجاه العرب في حدود معرفتي وتجربتي.

.أنت توزع نشاطك في اتجاهين: الشخصية العربية. والادب العربي المعاصر والرواية بخاصة. عم تبحث؟ ماذا تريد ان تقول؟

انني أسأل مستغربا: لماذا ليس عند اليابانيين اهتمام بالثقافة الاسلامية؟ كلما قدمت جهدا او فكرت بجهود زملائي من الباحثين يحضر هذا السؤال بالحاح وابحث عن جوابه باستمرار، ساحاول ان افصل اكثر، منذ مئة سنة لم يكن اليابانيون يعرفون شيئا عن العرب وبالطبع لم يكن العرب يعرفون الا القليل عن اليابان والان نفهم بالتدريج ونقول: نحن نتبادل الثقافة ولكن هذا قول: أريد

ان يتم الدخول والنفاد الي جوهر الثقافة العربية وكيف نتبادل الثقافة؟ وكيف يمكن ان يتم تمثل الثقافة العربية؟ نحن أخذنا الثقافة الغربية. ونجحنا الي حد في تمثلها، وعندنا الكثير من الباحثين أصبحوا مثقفين بالثقافة الاوروبية والمسيحية أعني يعيشونها يتمتعون بها وتظهر في حياتهم حاضرة حية ولماذا ليس عندنا في اليابان من تربي تربية ثقافية عربية اسلامية؟ أنا أظن ان الحاجز كبير بين الثقافتين: اليابانية والعربية الباحثون اليابانيون في هذا المجال - كغالبية - مترجمون دائما نرى ونترجم ونفسر ولكن لم نكتشف - ربما - بعد لا بد من جيل جديد لا يكون مترجما فقط هكذا أظن. بالنسبة لي أنا أتابع الرواية العربية وهي جزء من حياتي ولكنني لا ترضيني مهمة الترجمة فقط أريد شيئا ابعد ولذلك أبحث في الشخصية العربية وبالطبع انا لا اقلل من اهمية نقل الرواية العربية او الشعر العربي او غيرهما ولكنني ابتغي ما هو اعمق ولذلك اتابع واسافر الى البلدان العربية باستمرار. أظن اننا لم نكتشف ثقافتكم من الداخل لم نصل الي مرحلة الاستمتاع بها وفي هذا المجال لا يمكن الاعتماد على الاخرين لا بد ان ننجز المهمة بانفسنا وكما قلت أظن ان الحاجز كبير بين الثقافتين وبدون ان نتجاوز هذا الحاجز سنبقي قرب السطح بعيدا عن الاعماق. مثلا العرب لا يعرفون شيئا جوهريا عن اليابان انا افهم هذا .العرب غير مهتمين حتى الان السبب مفهوم وواضح ولذلك أشك بان يكون اهتمام اليابانيين بالثقافةالعربية الاسلامية حقيقيا، انا اتجه الى هذه الغاية وابحث عن جواب ولذلك اكتب وأترجم واسافر الى البلدان العربية.

"أين المصريون؟" عنوان كتابك عن الشخصية المصرية، هل تظن ان هناك شخصية مصرية، واخرى سورية وثالثة مغربية وهكذا، ام الشخصية العربية؟

اليابانيون كما تعرف يعلمون القليل عن العرب مهمتنا ان نعرف اليابانيين هنا على الشخصية العربية من الداخل طبعا توجد شخصية عربية وهذا لا ينفي ولا يتناقض مع القول بالشخصية العربية المصرية ولقد وضح هذه المسألة الدكتور جمال حمدان ممتازا في مقدمة كتابه "شخصية مصر" هذا الموضوع متشابك

وكبير للغاية كما أظن ولذلك انا الان مهتم بالشخصية السورية من خلال معايشة الناس والاقامة معهم في بيئتهم انني مهتم بالقضايا الجوهرية في الوطن العربي وعن طريق الكتب فكرا وادبا ونقدا اكتشفت وفهمت نصف الشخصية المصرية واستغرقني ذلك عشر سنوات وانا مسرور بنتيجة جهدي ولكن ذلك لا يكفي انني الان مهتم بالبيئة الجغرافية في الوطن العربي وبانسان هذه البيئة وانت تعرف مدى التنوع، البيئة مهمة جدا فيما اري الانسان المرتبط بالبيئة ان الاتصال بالناس صعب جدا وبالنسبة لي الانسان العادي في منتهى الاهمية مثلا شخص في البادية السورية حفر اكثر من خمسين بئرا حتى وجد الماء ثم استقر نهائيا بجانب البئر هذا الارتباط الحميم بالبيئة يثيرني ويشدني وابحث عنه وعن فهمه. أنت تعرف أنا أترجم روايات عربية وقصصا قصيرة وأكتب ولكن عندي هدف ابعد وعلينا ان نتوجه الى أهدافنا دائما بجدية قصوى على كل حال انا أمشي.

يرى الكثيرون في أمريكا وأوروبا ان عصر "شووا" فترة حكم الامبراطور السابق هيروهيتو هو عصر الرواية اليابانية الذهبي وأن من الصعب ان يتجاوز الروائيون اليابانيون كتاب تلك المرحلة انت ماذا ترى؟

في عصر شووا تالقت الرواية اليابانية هذا صحيح اما الان فالحركة الادبية راكدة المواضيع استهلكت ومن الصعب فعلا تجاوز روائي عصر شووا لا بد من تغيير عميق.

يقول الشاعر العربي عنترة بن شداد: هل غادر الشعراء من متردم؟ ولكنه كتب معلقة رائعة أعني المشكلة ليست في الموضوع هناك دائما أسباب ابعد من الموضوع وما هي هذه الاسباب التي تخص ركود الرواية اليابانية؟

في العالم لا تظهر مواهب جديدة كبيرة، لماذا؟ عندنا في اليابان الحركة مستمرة ولكن لا يظهر كتاب أقوياء وكرأي شخصي أرى ان مجتمع اليابان نضج قليلا وفقد حيويته وجوعه للاشياء أي فقد موقع تحدي المشاكل هذا المجتمع شبعان هذه الايام ولذلك ضعف عنده عنصر التحدي وأنا اعتقد اننا عندما نطلب الادب للمتعة لا نبدع ادبا.

المجتمع الياباني حقق القدرة الاقتصادية وبالتالي فالفرد يستطيع تحقيق حاجاته حسب اهتمامه، الغنى افقد اليابانيين جوعهم للاشياء اعني فقد الناس جوعهم النفسي ايضا، مثلا في القديم كان العالم الخارجي مدهشا للياباني: كان مجهولا الان فقد الشباب اهتمامهم بمشاكل العالم ككل وهم يسافرون ويشاهدون بسرعة ويتحدثون بثقة كبيرة انهم شاهدوا وعرفوا لكل ذلك مبيعات الكتب الادبية تقل، اوروبية ومحلية وآسيوية وغيرها من الاداب العالمية، هذا مؤسف ولكنه واقع.

قبل ان نتابع الحديث عن أزمة مبيعات الكتب أريد ان تعطينا فكرة عن الجوائز الادبية في اليابان خاصة جوائز الرواية وطبيعة هذا الجوائز ودورها في العلاقة بين الكاتب والقارىء.

عندنا في اليابان جائزتان سنويتان للرواية وهاتان الجائزتان مهمتان للغاية والقاريء ينتظر النتيجة باهتمام بالغ الجائزة الاولى هي جائزة "أكتاغاوا شيو *Akutagawa-syou*" اي الادب النقي هذا الاسم غريب الادب للادب الفن للفن!

هذه الجائزة تعطى للادب الرفيع وصاحب الجائزة يكتسب شهرة واسعة وتباع كتبه بكثرة وتلاقي كتاباته كلها حفاوة واهتماما من القراء قيمة الجائزة ليست مادية انما قيمتها في مدى انتشار الكاتب. اما الجائزة الثانية فاسمها "ناؤكي شيو *Naoki-syou*" وهي مخصصة للادب الشعبي والقارىء الياباني يشتري كتب من يفوز باحدى الجائزتين باقبال. عندنا بعض الناس يريدون ان يستمتعوا بالقراءة ولكنني أستغرب كيف يمكن ان نفرق بين أدب نقي وأدب شعبي، وهل هناك حدود فعلا؟ هذا غريب.

الجائزتان حكوميتان؟

لا، ليس للحكومة صلة بهما، شركات النشر تمول الجائزتين وبخصوص الجوائز واهميتها لا بد من توضيح مهمة للغاية، انت تعرف ليس عندنا في اليابان اله، اعني ليس عندنا اجابات مقدسة وجاهزة على مشاكل الحياة كما في البلدان العربية مثلا ولذلك نعتمد علي انفسنا نبحث عن الاجابة لدى الكاتب الروائي

ايضا ومن هنا نستطيع فهم اهتمام القراء بالانتاج الادبي وانتظارهم لنتيجة الجائزتين المذكورتين. ولكن هناك شكوى الان من ان المواهب الكبيرة لا تظهر.

في الوطن العربي تقل مبيعات الشعر سنة بعد اخرى ولكن الرواية تحافظ على مبيعاتها وفي اوروبا نجد الصورة نفسها ماذا عن اليابان؟

المقارنة بين القراء العرب والقراء اليابانيين غير دقيقة كما أتصور. القارىء في اليابان يشتري كثيرا كما قلت ربات البيوت يتابعن الكتاب ويشترين كثيرا ايضا للاسباب التي ذكرتها وهذا كله مرتبط بنظام التعليم في اليابان، والظروف الاقتصادية ونمط الشخصية. ولكن كما اعلم فالقراء في الوطن العربي قليلون والمهتمون بالادب اقل لاسباب اقتصادية، وسياسية وتعليمية، اما بالنسبة للشعر فالامر مختلف وأضيف ايضا ان اهتمام الشباب عندنا بالكتاب ينخفض كما أشرت من قبل.

ماذا عن القصة القصيرة اليابانية؟

القصة القصيرة قليلة في اليابان، ايضا الصورة مختلفة عن الوطن العربي والنماذج الجيدة نادرة عموما ربما لا يتجاوز نتاج القصة القصيرة نصف واحد بالمئة من نتاج الرواية.

القصة القصيرة لا تلائم مجتمع الاستهلاك الرأسمالي ام ماذا ترى؟

وسائل الاعلام اليابانية لا تعطي مكانا للقصة القصيرة وما ينشر في المجلات الدورية لا يتعدى مستوى كتابة التسلية، اما ما هي الاسباب، حقيقة لم أسأل نفسي من قبل على الاقل، ليس عندي تفسير متماسك مقنع هذا هو واقع القصة القصيرة اليابانية.

قبل ان ننتقل الى الشعر هل تعتقد ان رواية عصر شووا وصلت الى المستوى العالمي للرواية؟

لست ناقدا مختصا ولكنني أتابع الرواية بلا انقطاع الرواية الاوروبية مقياس العالمية؟ على فرض ان الرواية الاوروبية في نماذجها الرفيعة متفوقة او كانت متفوقة ولكن ما هو معيار هذا التفوق عند ديستويفسكي مثلا؟ الموقف؟ القضية

اعني قضية الكاتب؟ الفن؟ الانطباع المؤثر؟ الامتاع الذي يعمق معرفتنا بالحياة؟ الخ. انا عندما أقرأ النماذج المتفوقة عند يوسف إدريس مثلا او الطيب صالح او غيرهما أجد المستوى الرفيع، أجد ما تسميه أدبا عالميا ذا جاذبية نماذج عديدة من الرواية العربية والقصة القصيرة العربية أعطتني انطباعا قويا وبهذا المعنى الرواية اليابانية في هذا المستوي واستطيع ان اذكر اكثر من روائي ياباني مثلا اغلب روايات "تاكيدا تايجون" نماذج من روايات "تانيزاكي" و"أبي كوبوو" بالنسبة لي انا اقدر ادب الموقف، ادب القضية واحترم في الكاتب اخلاصه لقضية الكتابة حياة وسلوكا، الموقف مهم للغاية وكمثال انا ترجمت غسان كنفاني الى اليابانية، غسان الانسان والموقف يحتل مكانة عالية رغم ان انتاجه خارج شروطه لا يحقق هذه المكانة.

كما اعلم علاقتك بالشعر العربي ليست قوية، لماذا؟ هل للشعر خصوصية معينة؟ او ماذا؟

صلتي بالشعر الياباني ليست قوية ايضا، اريد ان اقرأ وأقرأ. علاقة الياباني مختلفة عن علاقة العربي بالشعر، الشعر في اليابان للاقلية، جمهور الشعر محدود جدا، ظروفكم مختلفة عن ظروفنا. طبعا الشعر مهم في اليابان (وهل يوجد شخص في العالم ليس الشعر مهما له؟) ولكن حياتنا بعيدة عن الشعر، عندما كنت طالبا كتبت الشعر تحت تاثير وتوجيه اساتذتي ولكنني توقفت نهائيا لانني لم أستطع التعبير عن نفسي كما اريد، اشعر ان في الشعر طاقة كبيرة قدرة عميقة ومخبوءة وان نماذجه الرفيعة صعبة المنال وكمثال بعض اشعار "ناكاهارا تيوويا". وانت ستكتشف كشاعر وانسان في الشعر الياباني اشياء مرتبطة بداخلك فالشعراء عندنا لديهم اشياء عميقة وفريدة. وفي اليابان شعراء للامة كلها أعني نعتبرهم شعراء وطنيين وكل اليابانيين يقرؤون هولاء الشعراء هذا باختصار شديد عن الشعر الياباني، اما عن الشعر العربي بالنسبة لي كقارىء ومحب للشعر طبعا المناخ مختلف والطبيعة مختلفة والشخصية مختلفة وبالتالي فدلالة المفردات تختلف مثلا ببساطة فصل المطر في اليابان هو الصيف وفي

البلدان العربية الشتاء اذن كل مفردات الطبيعة تفترق في الشعرين: العربي والياباني فلكل منهما خصوصيته وتفرده وعلى هذا فلكي نستطيع ان نقرأ الشعر العربي لا بد ان نعرف اللغة العربية معرفة واسعة، معاني، ودلالات. طبعا قرأت اشعارا عربية ومازلت أقرأ وكمثال لقد ساعدني كتاب محمود درويش "يوميات الحزن العادي" على فهم شعره، وكمثال ايضا شعرت ان ادونيس صعب واعترف انني لم افهم شعره جيدا رغم اهتمامي بتفكيره بالطبع علينا ان نقدم هذين الشاعرين للقارىء الياباني وعلينا ان نقدم الشعر العربي ليس القديم فقط بل الحديث ايضا ولكن بشكل سليم وهذه المهمة في منتهي الصعوبة حيث نحتاج الى موهبة اكبر من موهبة المترجم باختصار الشعر فن خاص وصعب ومثير.

هناك اجماع على ان شعر: "التانكا" وشعر "الهايكو" شكلان يابانيان وليس للثقافة الصينية اي تاثير عليهما وفي الفلسفة مثلا لا نجد فلسفة يابانية خاصة وفي مجالات العلوم الانسانية عموما ايضا لماذا "التانكا" و"الهايكو"؟

في الهايكو لا يعتمد الشاعر على الكلمة بل يعتمد على العلاقة بين الكلمات علي التركيب وعلى علاقة الكلمات بالداخل والخارج معا ولذلك فالهايكو مكثف جدا وكلما قرأت نقدا رفيعا للهايكو شعرت انني مقصر اما لماذا الهايكو بالنسبة لليابانيين؟ فانا اتصور ما يلي:

ا- في كل ثقافة اسلوب خاص بها وشكل خاص واظن ان اليابانيين وجدوا اسلوبهم في الهايكو.

ب- اللغة اليابانية تستخدم ثلاث ابجديات كما تعلم الهيراجانا والكاتاكانا والحروف الصينية الاصل وهي تختلف في النطق عن اللغة الصينية كما هو معروف ولذلك فالهايكو ليس نتيجة تاثير الثقافة الصينية.

ج- أسلوب التعبير عن المشاعر يختلف من شعب الي آخر والهايكو يلائم طريقة اليابانيين في التعبير عن مشاعرهم وميولهم. باختصار الهايكو شعر ياباني خاص بيئة وشكلا وعواطف وميولا.

لعلك لاحظت وفرة الشعر العربي من جهة وسرعة استجابة المواطن العربي لشعره هل الصورة واحدة بالنسبة للشعر الياباني والمواطن الياباني؟

أعتقد ان الامر مرتبط بالشخصية انتم تريدون أن تعبروا عن انفسكم مباشرة وبسرعة اما الياباني فيخبيء شعوره في داخله ويخفي مشاعره ويراقب وربما احتفظ بانفعاله مدة طويلة واحيانا يفقد حماسه للتعبير. بيئتنا مختلفة عن بيئتكم بيئتنا هادئة ونحن لسنا متعودين علي رد الفعل السريع لذلك كان إنتاج الشاعر المعروف؛ "باشو" قليلا جدا، كان يذهب في جولات طويلة يرى طبيعة بلده ولكنه يكتب مقطوعتين او ثلاثا من الهايكو. حتى في مجال الرقص انتم ترقصون اكثر منا ورقصنا كما تلاحظ بطيء وداخلي اليابانيون لا يعبرون مباشرة بكلمة او بحركة ولذلك الهايكو مكثف جدا كما قلت. مرة حدثت شاعرا يابانيا عن اسلوب الاماسي الشعرية في البلدان العربية فتفاجأ وقال انه لا يستطيع ان يقرأ شعره امام الاخرين لانه يخجل ولانه لم يفكر بالموضوع على هذا النحو مطلقا. نحن لا نتوقع الكلمة التي تحرق قلوبنا في أمسية. الياباني يقرأ الشعر في البيت في خلوة يغلق الباب نعم يغلق الباب ويقرأ وحيدا وهو لا يريد احدا بجانبه عندما يقرأ الشعر، لا بد ان نكون في احسن حالاتنا لنقرأ شعر باشو مثلا. عندكم يقول ادونيس ما معناه انه ينتظر من قارىء الشعر ان يكون في أصفى حالاته الفكرية والنفسية وهو يقرأ الشعر اي ان يستعد لان الشاعر يحاوره من هذا الموقع، هذا المعنى نقدره ونحترمه. على اي حال، أرى انه خلاف في الشخصية وكثرة الشعر العربي تعبير عن ميول وعواطف وبيئة الشخصية العربية.

قلت ان جمهور الشعر محدود جدا في اليابان ولكنني اعرف ان معظم اليابانيين ان لم اقل كلهم يقرؤون الهايكو واحيانا يكتبونه.

لا بد من التمييز، عندما تقول: الشعر في اللغة اليابانية فاننا لا نعني التانكا والهايكو فنقول: الشعر والتانكا والهايكو وانا قدرت ان هذا معروف وواضح والهايكو بصورة خاصة يحتفظ بجمهوره خاصة الجيل الذي قارب الخمسين فما فوق ومعظم الشركات اليابانية والمؤسسات تصدر مجلات خاصة لنشر ما

يكتبه العاملون من شعر الهايكو وانت تذكر اننا ذهبنا اكثر من مرة مع شعراء هواة الى الجبال والقرط وكان معنا ربات بيوت وعجائز وموظفون. انت تعرف الاستاذ كوباياشي معلمي انه يعمل في شركة تامين ضد حوادث السير، عمله بعيد جدا عن الشعر ولكنه يقول انه لايستطيع ان يتصور حياته ولا يحتملها بدون الهايكو هذا ما عنيته بالشخصية والبيئة واسلوب التعبير.

الكاتب العربي يناضل في سبيل حريته وحرية الاخرين بدءا من الرقابة وانتهاء بالمحرماتوماذا عن حرية الكاتب في اليابان؟

الكاتب الياباني لا يعاني من الرقابة. ولا يواجه رقابة، عندنا رقابة على كلمات عندما نكتب او نترجم لا نستطيع استعمال كلمات مثل اعمى اعرج الخ.

معقول؟

نعم، عندنا أسباب في القديم كانت كلمة "أعمى" شتيمة في اليابان هذا شيء وشيء آخر هو ان عدد المعوقين كبير عندنا الان، وهم يعتبرون استعمال هذه المفردات يشكل اهانة وشتيمة لهم، ويحتجون بقوة فيما لو استعملت ونحن نقدر مشاعرهم.

هل صادفت حالة كهذه؟

نعم، أكثر من مرة مثلا عندما ترجمت قصة "بيت من لحم" ليوسف ادريس سألني الناشر ان أغير ترجمة كلمة "أعمى" وكما تعرف فان بطل القصة مقرىء أعمى

كيف تترجمون مثل هذه الكلمات؟

نقول: شخص ليس لديه سهولة استخدام العين عن "الاعمى" وهكذا، هذا مضحك نعم، ولكنه واقع.

ماذا عن مواضيع الجنس، والدين والسياسة؟

توجد رقابة علي بعض الكلمات، بعضها ممنوع تلك التي تثير تقزز القارىء او بعض القراء. في السياسة لا توجد رقابة ولا في موضوع الدين ولكن ليس عندنا حرية كاملة. ولكننا نكتب كما نحب.. مثلا موضوع الإمبراطور ليس عندنا حرية

واسعة في الكتابة عنه، عندنا تجارب رقابة ولكن ليس بمعنى الرقابة في البلدان العربية لقد تجاوز الكتاب اليابانييون هذا الوضع.

هل يدخل الكاتب الياباني السجن بسبب كتابته ومهاجمته السلطة مثلا.

(مازحا): اذا سرق دخل السجن، في هذه الحالة نعم.

سؤال أخير، ماذا يريد المستعرب نوتاهارا؟

بالدرجة الاولى أريد ان انقل افضل الانتاج القصصي العربي الى القارىء الياباني حسب موقفي واهتمامي واذا قصرت فساكون قد قصرت في مسؤوليتي انني ابحث من موقف وموقع وليس لسبب آخر. انها قضيتي ومسؤوليتي تجاه نفسي وتجاه الاخرين واحيانا أريد ان أقول انطباعاتي عن الوطن العربي.

(طوكيو / شباط/١٩٨٩)

(من كتاب الشخصية اليابانية: وفيق خنسة - دمشق عام ١٩٩٤ م)

خاتمة

أربعون سنة أوشكت أن تنتهى منذ بدأت أتعلم اللغة العربية وأثناء هذه الفترة الطويلة زرت البلدان العربية مرات عديدة ولقد أستقبلت دائما كضيف وتمتعت بضيافة أصدقائي فى كل زيارة. إننى أغتنم الفرصة لأعلن لهم عن شكري العميق وتقديري.

لقد كتبت ما جربته وشاهدته كما أريد وزرت الأماكن التي أريد ودققت باب البيت الذي أردت ان أزوره. لذلك فإن كل ما كتبته باليابانية والعربية هنا لا يعطي صورة كاملة ولا صورة منظمة عن البلدان العربية. إن ما قدمته لا يمثل سوط جهة صغيرة من البلدان العربية. ولكن عزائي هو أنني كتبت بصدق معتبرا ما قدمته في هذا الكتاب رد جميل لأصدقائي في البلدان العربية.

في هذه الخاتمة أريد ان أقدم نفسي بشكل آخر.

قبل كل شيء حاولت أن أكون أحد قراء الأدب العربي المعاصر. وفى هذا السبيل قابلت الكثير من الكتاب ومن الانتاج الأدبي وإرادتي هذه - أن أكون قارئا للأدب العربي المعاصر - أريد لها أن تستمر في المستقبل.

إن القدرة على قراءة الأدب العربي الحديث هي متعتي الشخصية. وهذه المتعة التي حصلت عليها هي امتيازى ايضا . أنا أملك هذا الامتياز - قليل من اليابانيين يقدرون أن يحصلوا على هذه المتعة.

بعد متعة القراءة تأتي الترجمة. وفي هذه الحالة أخترت الانتاج وفق اهتمامي الشخصي بالدرجة الأولى قبل الاهتمام بالجمهور الياباني، ولذلك اخترت وفق إرادتي وهذا يعني ان مجموعة الروايات والقصص القصيرة التي ترجمتها لا تعطي صورة متكاملة عن الأدب العربي الحديث.

كما قلت: كل ما جربته كان حسب إرادتي واختياري الشخصي. ذهبت الى الأماكن التي أردت الذهاب اليها. وفي هذا الطريق قابلت أصدقائي الذين

يجمعني بهم رباط مشترك بيننا. وأعترف بصراحة كاملة إنني كنت أفكر بالتجربة من أجل نفسي أولا قبل أن أفكر في مهمة نقل تجربتي الى الآخرين.

لقد تعلمت كثيرا في الشارع وفي الحقول وفي البادية، يعني خارج الجامعة. الآن وبعد إنهاء ما أردت كتابته يمر في ذهني شريط دافيء من الذكريات الغالية:

- لقاءاتي مع أصدقائي في مصر التي استمرت أكثر من عشر سنوات. معاشرتي لهم لا تنسى.
- حياتي مع الفلاحين في قرية الصحافة في الدلتا بمصر.
- رحلة الى حضرموت في اليمن.
- رحلة في بداية الربيع الى منطقة جبال الأطلس في المملكة المغربية.
- الأيام التي أمضيتها في طنجة مع محمد شكري.
- أيام جميلة في اللاذقية مع صديقي الحميم وفيق خنسة والكاتب حسن صقر وآخرين لا أنساهم.
- أيام مع بني خالد في البادية السورية.

إن ما تبقى من حياتي ليس كثيرا فأنا أجتاز الستين ولكنني أريد ان أتابع هذا الطريق حتى النهاية.

بعد هذه التجربة الجميلة والذكريات الجميلة لا أستطيع ان أهرب من شعور يسيطر علي وهذا الشعور يأخذ شكل السؤال التالي: هل هناك عالم عربي او مجتمع عربي مختلف عما شاهدته وجربته مثلا؟

في سورية، هل هذه سورية الحقيقية أم لا؟ أنا قبل أن أضع الخطوة الأولى على أرض سورية تعلمت تأريخها وكونت صورة عنها، وعن الشعب السوري. بعدئذ دخلت الى سورية! هناك قابلت صورا مختلفة عن الصور التي كونتها في ذهني. سورية في ذهني، كما تخيلتها، أكثر تنوعا وأكثر رقة وأكثر نشاطا.

أنا سمعت كثيرا من أصوات الأنين داخل سورية او خارجها من اللاجئين. وفي نظري السوريون ليسوا سعداء. أثناء هذه الكتابة الصورة مفقودة، صورة سورية كما توقعتها تلاحقني ولا أستطيع أن أتخلص منها. تلك الصورة منعت

من الظهور في التاريخ فبقيت مخبوءة مستورة مفقودة.

عندنا في اليابان مشاكل كثيرة كالزلزال او كيف نواجه مشكلة ازدياد عدد العجائز في المستقبل لكي نقدم الرعاية اللازمة لهم، هذا الموضوع خطير حاليا. وفي الوقت نفسه نفكر جديا في مشكلة تلوث البيئة. ان الناس عندنا يفكرون بذلك ولقد بدؤوا يبذلون جهودا لكي نشترك مع الآخرين في تسليم الارض سليمة للجيل الجديد. وسؤالي:

ماذا يفكر العرب ان يفعلوا للمستقبل؟

ولكي يفكر العرب بالمستقبل، فإنني أرى أن هناك مشكلة لا بد ان تحل لكي يتمكنوا من العمل على حل مشاكل المستقبل. هذه النقطة هي مركز كتابي هذا، وأرى ان مشاكل كثيرة تخرج من "القمع". القمع مرض عضال ومشكلة أساسية في المجتمع العربي. وعندما يتعرض شخص ما من خارج الوطن العربي لهذه المشكلة فانه يعالجها بصورة خفيفة تشبه الكلام المازح. ونحن نعرف معا كثيرا من الضحايا الموجودين الآن في الوطن العربي.

وفي رأيي لا توجد خطوة عادلة أولى تتجنب هذا الموضوع، موضوع القمع والحرية.

بقية رحلتي ليست كثيرة ولكن انا أتابع طريقي الذي عملت فيه حتى الآن. إنني أجد نفسي واقفا أمام موضوع صعب وفي الوقت نفسه مثير. وهو أنكم أنتم لا تستطيعون ان تتجنبوا مواجهة المشكلة وان تتجنبوا البحث عن أشياء مهمة مفقودة. إنني أتمنى أن أمشي في الشوارع العربية فلا أرى التوتر الشديد الذي جربته وشاهدته. أتمنى انه يختفي من الشارع العربي. وان تصبح وجوه الناس سعيدة. عندئذ أقدر ان أتحدث عن مصر حقيقية او سورية حقيقية وغيرهما من البلدان العربية.

في النهاية وجوه أصدقائي تعبر ذهني، وأنا لا أستطيع السيطرة على شعوري بالشكر الكبير لهم. أنا لم أذكر أسماءهم هنا ولكنني أتمنى ان يصل هذا الكتاب الي أيديهم كرمز لشكري وتقديري.

وفي النهاية أيضا لا بد ان أشكر بصورة خاصة الصديق وفيق خنسة لانه ساهم في تشجيعي لأكتب هذا الكتاب. لقد قال لي مرارا: حتى الأعمى اذا أمضى أربعين سنة في مكان، استطاع ان يرى شيئا يستحق الكتابة. وهذا التشجيع دفعني لانجاز هذا الكتاب، علاوة على انه راجع النص وصوب الكثير مما تعثرت في التعبير عنه بلغة سليمة.

فاذا وجد القارىء الكريم فيما قدمته بعض المتعة والفائدة فإن ذلك هو ما قصدته ورجوته، واذا لم يجد فإنني أعتذر عن تقصيري وكما قال شاعر عربي: صح مني العزم والدهر أبى!

الفهرست

هذا الكتاب

باختصار أريد ان أقول للقارىء العربي رأيا في بعض مسائله كما أراها من الخارج كأي أجنبي عاش في البلدان العربية وقرأ الادب العربي وأهتم بالحياة اليومية في المدينة والريف والبادية.

نوبوأكي نوتوهارا



